

الفصل الثالث

لطف الله بأنبيائه ورسله

لطف الله بإبراهيم الخليل عليه السلام

ذلكم النبي الكريم إمام الخنفاء وأبو الأنبياء، وأول من بني الله بيتاً، وقد جعل الله النبوة في ذريته من بعده، فلم يرسل نبي بعده، إلا وهو من نسله، وكم في حياة هذا النبي العظيم من عبر وآيات، وفوائد وعظات وأسوة وقُدوة للخلق من بعده، فقد قام بدين الله كله، وكان للناس إماماً وكان أمة قلتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين.

ونأخذ من حياته هذه الثلاث مواقف تذكّر بها عظيم لطف الله به:

الموقف الأول:

إنه دعا قومه التوحيد وترك عبادة الأصنام والحجارة ولم يكن على وجه الأرض موحد غيره فما كان من قومه إلا التكذيب والإعراض والصد والند، والمكر والكيد، جاء إبراهيم إلى أصنامهم، في وقت غيابه قومه وانشغالهم فتهرباً إبراهيم عليه السلام الأصنام ودمرها وكسرها بمعوله، وترك كبير الأصنام فلما جاء قومه من عيدهم ونظروا إلى آلهتهم فزعوا، وغضبوا وقالوا بمتتهى العنف والغيط: من فعل هذا بالهتنا؟ قال ربنا سبحانه وتعالى في حكاية هذا الحديث ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ٩ ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ١٠ ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ ١١ ﴿قَالُوا أَأَتَتْ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ١٢ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَأْذِنُوا مِنْهُمْ إِنَّكُمْ كَانُوا يَتَطَفَّؤْنَ﴾ (الأنبياء: ٥٩-٦٣).

ولكن أنى للأصنام والحجارة أن تجيب؟ أنى لها أن تعقل وتفهم وتنفع أو تضر؟! ولما عجز الكافرون عن الحججة، ووجدوا أنفسهم قد دُحروا وهُزموا أمام هذا البيان الناصع من إبراهيم عليه السلام، لما وجدوا ذلك لجأوا إلى التعذيب، لجأوا إلى حيلة الطُّغاة، والمجرمين في كل زمن، إذا شوهوا الحق وحاربوه ثم وجدوا حُجج الحق تَعْلُوهم فَعَلُوا ذلك.

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۚ أَفَبِلَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَلَا تَعْقِلُونَ ۚ ﴾ ٧٧ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۚ ﴿ ٧٨ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۚ ﴾ ٧٩ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿ ٨٠ ﴾ (الأنبياء: ٧٦-٧٠).

قال الحافظ ابن كثير عليه رحمة الحكيم الخبير في «كتابته التفسير»: لما دحضت حججهم وبان عجزهم، وظهر الحق واندفع الباطل عدلوا إلى استعمال جباه ملكهم، فقالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، فجمعوا حطبًا كثيرًا جدًا، قال السدي: حتى إن كانت المرأة تمرض، فتتذر إن عوفيت أن تحمل حطبًا لحريق إبراهيم. ثم جعلوه في جوبة من الأرض وأضرموها نارا، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع، لم توقد نار قط مثلها، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة انجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، فلما ألقوا إبراهيم قال حسبي الله ونعم الوكيل، كما رواه البخاري من عبد الله بن عباس رضي الله عنه أنه قال: حسبي الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار وقالها محمد

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (التكوير: ١٧٣) (١).

وقال سعيد بن جبير ويروى عن ابن عباس أيضا قال: لما ألقى إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متى أؤمر بالمطر فأرسله ؟ قال فكان أمر الله أسرع من أمره، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾، قال: لم يبق نار في الأرض إلا طفئت، وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله عز وجل قال وسلامًا، لأذى إبراهيم بردها (٢)، فإذا كان من طبيعة النار أن تحرق وتدمر فإنها بأمر الله وإذنه وقدرته تكون بردًا وسلامًا، لا إحراق ولا تدمير، ولا حرارة إن الله جل جلاله الذي قال للنار كوني حارقة، هو الذي قال لها كوني بردًا وسلامًا. ذلك لنعلم أن الله على كل شيء قدير وأنه لطيف بأوليائه، قريب منهم إذا ابتلوا يثبتهم وينصرهم، ويحفظهم من عدوهم، فإن الله لا يذر أولياءه أبدًا، ولا يغفل عن دعائهم وتضرعهم قط، فكم لله من لطف خفي يوصلهم بهذه البلاءات إلى أعظم وأعلى الدرجات، فسبحانه وبحمده.

فلا تحزن أيها المسلم إذا وقع بك بلاء مهما كان عظيمًا ومهما كان شديدًا فربك قادر على رفعه في أقل من لحظة، ولكن تضرع إليه، استغفره، استغث به، تذل بين يديه، فإن فرجه قريب، ورحته قريب من المحسنين.

(١) «فتح الباري» (٨ / ٧٧).

(٢) «المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير» (ص: ٨٧٠).

الموقف الثاني:

مكث إبراهيم الخليل دهرًا طويلًا وعمرًا مديدًا لا يولد له، حتى يئست امرأته من الإنجاب واستبعدت جدًا أن يحصل إنجاب وقد صارت عجوزًا وصار زوجها شيخًا، ولكن الله العليم الحكيم يقدر برحمته أن يهب إبراهيم ذرية طيبة وولد له ولدان ولدت هاجر إسماعيل وولدت سارة إسحاق بعد ذلك ولما كبر إسماعيل وبلغ السعي مع والده وأصبح قرة عين لأبيه يزداد حبه له يومًا بعد يوم أراد الله جلا وعلا أن يمتن على إبراهيم بمنة أعلى من منة الولد وكرامة أسمى وأجل من كرامة الأبوة، أراد الله أن يصل إبراهيم إلى مرتبة الخلعة التي لم يصل إليها بشر قط إلا إبراهيم ومحمد ﷺ.

فوقع البلاء لترتفع الدرجة وتعظم المكانة لإبراهيم عند الله، فرأى في المنام أنه يذبح ولده، تخيل!! الولد الذي طالما انتظره، الولد الذي صار فلذة كبذ لأبيه، الولد الذي رزقه على الكبر يؤمر ليس فقط بالصبر على موته إذا مات، وليس فقط أن يشاهد لحظة قتله، بل يؤمر أن يذبح ولده بيده! يا الله! يا له من بلاء، ولما كان حب الله أعلى وهو الأصل في قلب إبراهيم لم يكن هناك بد من تنفيذ أمر الله فيؤثر إبراهيم أمر الله على هواه، وعلى حبه لولده وعلى طباعه البشرية، التي فطر عليها، ويستسلم استسلاما عظيما عجيبا مدهشا لأمر ربه جل وعلا بعد الاستسلام الكامل والإذعان التام والخضوع المطلق لأمر الله عز وجل، يأتي الفرج ويبدو لطف الله بإبراهيم، ويكشف الله البلاء، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعِلْمٍ حَلِيمٍ ١١٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ١١١ قَالَ يَأْتِيَ بِفَعْلٍ مَا تَوَمَّرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ١١٢ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ١١٣ وَتَدَبَّرْنَاهُ أَنْ يُكَذِّبَهُ ١١٤ قَدْ

صَدَقْتَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَقَدَرْنَاهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ ﴿١٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٩﴾ (الصافات: ١٥-١٩).

أرأيتم قلباً أبوئاً	يتقبل أمراً بأباه
أرأيتم ابناً يتلقى	أمراً بالذبح ويرضاه
ويجيب الابن بلا فزع	أفعل ما تؤمر أبتاه
لن أعصى أمراً لله	من يعصى يوماً مولاه
واستل الوالد سكيناً	واستسلم ابن لرداه
ألقياه برفق لجبين	كفي لا تتلقى عيناه
وتنهر الكون خراعات	ودعاء يقبله الله
تتفرع للكرب الأعلى	أرض وسماء وحياه
ويجيب الحق ورحمته	سبقت في فضل عطياه
صدقت الرؤيا لا تحزن	يا إبراهيم قد ديناه

الموقف الثالث:

لطف الله بإبراهيم وزوجه سارة بأرض مصر، ويتمثل هذا الموقف في حفظ الله لإبراهيم في أهله ودفعه السوء عنهم، وكشفه الكرب عن إبراهيم وزوجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة، فدخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة، فقيل: دخل إبراهيم بامرأة هي من أحسن النساء، فأرسل إليه أن يا إبراهيم من هذه التي معك؟ قال: أختي، ثم رجع إليها فقال: لا تكذبي حديثي، فإني أخبرتهم أنك أختي، والله إن ليس على الأرض من مؤمن غيري وغيرك،

فأرسل بها إليه، فقام إليها، فقامت فتوضأت وصَلَّتْ، فقالت: اللهم إن كنت آمنت بك، وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط علي الكافر، فغط حتى ركض برجله، فقالت: اللهم إن يمت يقال هي قتلتها، فأرسل ثم قام إليها فقامت توضأت وأخذت تصلي، وتقول: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي هذا الكافر فغط حتى ركض برجله، فقالت: اللهم إن يمت يقال هي قتلتها، فأرسل في الثانية أو في الثالثة: فقال والله ما أرسلتم إلي إلا شيطاناً، أرجعوها إلى إبراهيم، وأعطوها أجر، فرجعت إلى إبراهيم عليه السلام، فقالت: أشعرت أن الله كبت الكافر، وأخدم وليدة^(١).



(١) رواه البخاري برقم (٢٢ / ٧) وفي مواضع أخرى.

لطف الله بإسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمه

قال ابن عباس رضي الله عنه: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت، عند دوحة فوق زمزم، في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعها هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفي إبراهيم منطقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال نعم: قالت: إذا لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَسْكَنْتَ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾، حتى بلغ: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ٣٧).

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليه، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذراعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه: تريد نفسها، ثم تسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت لو كان عندك

غواث، فإذا هي بالملك عند زمزم فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف» قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم لكانت زمزم عيناً معيناً، قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم، مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عاتقاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جاريًا أو جارين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا» قال: «وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم» قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألقى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأثقفهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجته امرأة منهم»^(١).. الحديث.

تأمل أخي هذا المشهد العجيب الذي يفيض بالإيمان ويتلألأ باليقين والاستسلام لأمر الملك أي أسرة تلك الأسرة العظيمة التي رباها إبراهيم وغرس فيها هذه المعاني الإيمانية السامقة الشاهقة الرائقة، يا لها من مواقف، إبراهيم يترك ولده وأمراته بواد غير ذي زرع ولا إنس ولا جوار، لا طعام ولا ماء، لا رفقة ولا خدام، إنما هي صحراء

(١) رواه البخاري برقم (٣٣٦٤).

ملتبهة تتوهج رمالها تحت لفح الشمس المحرقة، ويزجر ليلها بزمهرير الصحراء القارس، المخيف وظلامها القاتم، الموحش تخيل امرأة ومعها رضيع في ذلك المكان كيف تعيش؟ كيف تعالج ولدها إذا مرض؟ كيف تطعمه إذا جاع وانتهى الطعام، أنى لها أن تسقيه إذا نفذ الماء، كل هذا لم يؤرقها ولم يجعلها تتردد لحظة في قبول أمر الله وتقديره وإنما تقول لزوجها المبارك: الله أمرك بهذا؟! فيشير برأسه أي نعم، فقالت: إذا لن يضيعنا، وفي الرواية الأخرى قالت: رضيت بالله، وبعد أن يعتصرها الألم ويشد بها الكرب، ويصارع وليدها الجوع والعطش، ويهاجمه شبح الموت، وتظل هي تبحث بكل سبيل عن ماء لتنقذ ولدها، من برائن موت قريب، وإذ بفرج الله يأتي ويلطف الله يبدو ويظهر، ويلمع بارق الأمل وتنشع سحابة الغم والكرب، وتتفجر عين ماء معين، لذة للشاربين، ورثاء للظالمين، وطعمة للجائعين، وبلسمًا ورواء يسكن به الألم والأنين، وتبدأ في هذه البقعة صفحة حياة لا تطوى، وعلم دين لا يمحي، فتكون تلك البقعة هي أقدس بقعة وأطهر بلد وأعظم مكان على وجه الأرض، ويبنى بها بيت الله، فتهدى إليه أفئدة المؤمنين، وتشتاق إليه قلوب المحبين يأتون من كل فج عميق وطريق بعيد، رجالاً وركباً، شباباً وشيوخاً، فتصير لمكة في التاريخ مكانة خلود، تظهر بزيارتها، القلوب، وتغفر الذنوب، فالحمد لله كم له من حكمة بالغة، وحجة دامغة، ونعمة سابغة، وما أعظم لطفه بعباده، وما أجل رحمته بهم!! سبحانه وبحمده.



obeikandi.com

لطف الله بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

أكثر القصص تكراراً في القرآن الكريم وتفصيلاً، وسرداً في محكم البيان، قصة موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ذلكم النبي الكريم الذي واجه أعنى أمة وكافح أكبر طاغوت، على وجه الأرض، هذا هو النبي الذي ألقى الله عليه محبة منه، وتشابهت سيرته إلى حد كبير بسيرة حتى نأسى به رسول الله ﷺ فقال: «يرحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر»^(١).

الموقف الأول: لطف الله بموسى في مهده:

انظر إلى لطف الله به، عدوه يريد قتله، وكم قتل من الأطفال ليقتل موسى ولكنه لم يحدث، ولما ولد موسى رباه الله في بيت عدوه وأصبح الجنود الذين يبحثون عنه ليقتلوه، أصبحوا هم حماته وحراسه، وبعد أن بلغ الكرب بأمه مدها، وكادت أن تصرخ في الناس وتقول ولدي، فرج الله كربها وساق إليها ولدها ترضعه، وتنال على ذاك أجرة، فكم لله من لطف خفي! تأمل وتدبر هذه الآيات العظيمة قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۚ إِنَّا رَاودُوهُ إِلَى الْيَمِّ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَأَلْقَطَهُ ۚ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۚ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝٨ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَ لَا نَقْضُهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا شَعُورَ ۝٩ وَأَصْبَحَ قُودًا أُمِّ مُوسَىٰ فَذَرْنَاهُ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَىٰ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ

(١) رواه البخاري برقم (٣٣٦٤).

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَ أَنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَئِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

(النَّحْلُ: ٧-١٣)

قال الحافظ بن كثير عليه رحمة الحكيم الخبير في كتاب «التفسير»: ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل خافت القبط أن يفنى بشوا إسرائيل فيلون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة فقالوا لفرعون: إنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم، وغلمانهم يقتلون، ونساؤهم لا يمكن أن يقمن بما تقوم بها رجالهم من الأعمال، فيخلص إلينا ذلك فأمر بقتل اولدان عامًا وتركهم عامًا، فولد هارون في السنة التي يتركون فيها الولدان، وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها الولدان، وكان لفرعون ناس موكلون بذلك وقوابل^(١)، يدُرْنَ على النساء، فمن رأينها ولدت أحصين اسمها، فإن ولدت المرأة جارية تركنها وذهب، وإن ولدت غلاما، دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرفقة^(٢)، فقتلوه ومضوا قبحهم الله تعالى، فلما حملت أم موسى به، لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها، ولم تفتن لها الدايات، ولكن لما وضعته ذكرا ضاقت به ذرعًا، وخافت عليه خوفًا شديدًا، وأحبته حبًا زائدًا، وكان موسى عَلَيْهِ السَّلَام لا يراه أحد إلا أحبه، فلما ضاقت به ذرعًا ألهمت في سرها وألقي في خلدها، ونفت في روعها، كما قَالَ الْعَالِي: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تخَفِي وَلَا تحزني إِنَّا رَآدُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (النَّحْلُ: ٧). وذلك أنه

(١) القوابل: هن الدايات اللاتي يقمن بتوليد النساء.

(٢) الشفار المرفقة أي: السكاكين الحادة القاطعة.

كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتاً ومهدت فيه مهداً، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعت في ذلك التابوت، وسيرته في البحر، وربطته بحبل عندها، فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه فذهبت فوضعت في ذلك التابوت في البحر، وذهلت^(١) عن أن تربطه فذهب مع الماء، واحتمله حتى مر به على دار فرعون، فالتقطه الجوارى فاحتملته فذهبن به إلى امرأة فرعون ولا يدري ما فيه، فلما كشف عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق، وأجله وأحلاه وأباه فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلمها، ولهذا قال تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمُنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (التقص: ٨). فقبضهم الله لالتقاطه ليجعله لهم عدواً وحزناً^(٢)، هكذا لطف الله بموسى فأنجاه من الذبح وردّه إلى أمه وساقه إلى حجر عدوه ليربيه بيده وباله وليسخر له نعيم قصره وخدمه.

الموقف الثاني: لطف الله بموسى في صراعه مع عدوه:

الأحداث والمشاهد التي لطف الله فيها بصفيه وكليمه موسى كثيرة، فمنها إنجائه من القوم الظالمين، ووصوله إلى أرض مدين ومكوته عند الرجل الصالح عشر سنين، وزواجه بابنته، ومنها أن برأه الله مما اتهمه له بنوا إسرائيل حيث اتهموه بأنه آدر، فبرأه الله مما قالوا، ومنها أن برأه الله من تلك البغي التي سلطها عليه قارون لتهمة زورا، وبهتاناً ومنها إعطاء الله له المعجزات كالعصا واليد وغير ذلك ليكون نصرة له

(١) قلت: هذا قول ابن كثير وقد خالفه غيره وظاهر القرآن مع من قال بأنها وضعت بإرادتها ولم تذهل عنه إذ أوحى الله إليها بذلك والله أعلم.

(٢) «المصباح المنير» (٣ / ١٠).

على عدوه، ومنها معية الله له ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (طه: ٤٦).

ومنها هذا المشهد الذي نختم به الحديث عن موسى صلى الله عليه وسلم أنه لما خرج من مصر متجهاً ببني إسرائيل نحو البحر الأحمر هارباً من بطش فرعون وظلمه وطغيانه واقتربوا من البحر وصاروا يبصرونه ويرونه وعن أيانهم جباًل واقتربوا من البحر وكذلك اليسار التفتوا فإذا فرعون بجنوده وجيشه يسير من ورائهم، فصرخ ضعفاء الإيمان: يا موسى إنا لمدركون وليس أماناً إلا البحر، فإلى أين نتجه وكيف ننجو من المستحيل جداً أن ننجو؟! إنه من يطش فرعون ولكن موسى بمتهى الثبات واليقين ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعرا: ٦٢).

لم يكن موسى يعرف كيف سينجو وكيف سيكشف هذا الكرب ولكن الذي يدره ويؤمن به أن الله مع أوليائه لطيف بهم رحيم بهم ففرج الله كربهم بمعجزة خالدة باقية وأهلك عدوه وطويت صفحة الصراع المحموم بين باطل فرعون اللعين وبين الحق الذي جاء بموسى الكليم، ما الذي جرى وما الذي حدث وكيف نجى موسى ومن معه وهلك فرعون ومن معه اسمع إلى الجواب المبين من رب العالمين هو أصدق القائلين قَالَ الْعَالِي: ﴿ فَلَمَّا تَرَأَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرُكُونَ ۖ ﴾ (١١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۖ (١٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۖ (١٣) وَأَرْزَلْنَا نَمَّ الْأَخْرِينَ ۖ (١٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ۖ (١٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرِينَ ۖ (الشعرا: ٦١-٦٢).

لطف الله بنبيه أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ

هذا النبي الكريم مضرب الأمثال في الصبر على البلاء والرضا بالقضاء والقضاء والاستسلام لحكم الله عز وجل، جعله الله قدوة وأسوة للناس في الصبر والرضا وامتدحه الله جلا وعلا فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعِمَّ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٤٤). نزل به البلاء واشتد به المرض وأحاط به الفقر وهجره القريب والبعيد ولم يثبت معه إلا زوجته التقية والوفية، يقول الحافظ بن حجر عليه رحمة الله تعالى: وأصح ما ورد في قصته ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن جريح وصححه ابن حبان والحاكم من طريق نافع ابن يزيد عن عقيل عن الزهري عن أنس: أن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ابتلي فلبث في بلائه ثلاث عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه فكانا يغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما للآخر: لقد أذنبت أيوب ذنبا عظيما، وإلا لكشف عنه هذا البلاء، فذكره الآخر لأيوب، فحزن، ودعا الله حيثئذ فخرج لحاجته وأمسكت امرأته بيده فلما فرغ ابطأت عليه فأوحى الله إليه أنه اركض برجلك فضرب برجله الأرض فنبعت عين فاغتسل منها فرجع صحيحا، فجاءت امرأته فلم تعرفه فسألته عن أيوب فقال إني أنا هو، وكان له أندران أحدهما للقمح والآخر للشعير فبعث الله سحابة فأفرغت في أندر القمح الذهب حتى فاض، وفي أندر الشعير الفضة حتى فاض^(١).

يقول سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ: وأيوب هنا في دعائه لا يزيد على وصف حاله ﴿أَنِّي مَسْنِي الضُّرِّ﴾ ووصف ربه بصفته ﴿وَأَنْتَ أَزْكَمُ الرَّجِيمَاتِ﴾ ثم لا يدعو بتغيير حاله صبرا على بلائه، ولا يقترح شيئا على ربه تأديبا معه وتوقيرا معه، فهو نموذج للعبد

(١) «فتح الباري» (٦/ ٤٨٥).

الصابر الذي لا يضيق صدره بالبلاء، ولا ينملل من الضر الذي تضربه تضرب به الأمثال في جميع الإعصار، بل إنه ليتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه، فيدع الأمر كله إليه اطمئناناً إلى علمه بالحال، وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة وكانت الرحمة، وكانت نهاية البلاء ﴿فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ (الأنبياء: ٨٤).

ثم رفع عنه الضر في بدنه فإذا هو معافي صحيح، ورفع عنه الضر في أهله فعوضه عمن فقد منهم، ورزقه مثلهم، وقيل هم أبناؤه فوهب الله مثلهم، أو أنه وهب له أبناء وأحفاداً ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ فكل نعمة هي رحمة من عند الله ومنه ﴿وَذِكْرِي لِلْعَبِيدِ﴾ تذكرهم بالله وبلائه ورحمته في البلاء وبعد البلاء، إن في بلاء أيوب لمثلاً للبشرية كلها، وإن في صبر أيوب لعبرة للبشرية كلها، وإنه لأفق للصبر والأدب وحسن العاقبة تتطلع إليه الأبصار، والإشارة (للعابدين) بمناسبة البلاء إشارة لها مغزاها، فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء وتلك تكاليف العبادة وتكاليف العقيدة وتكاليف الإيثار.

والأمر جدد ولا لعب، والعقيدة أمانة لا تسلم إلا للأمناء القادرين عليها المستعدين لتكاليفها وليست كلمة تقولها الشفاه، ولا دعوى يدعيها من يشاء ولا بد من الصبر ليجتاز العابدون البلاء^(١).

ومن تمام لطف الله بأيوب أن صب عليه الرزق صباً ففي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «بينما كان أيوب يغتسل عرياناً

(١) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٣٩٢).

خر عليه رجل من جراد من ذهب فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أغنك عما ترى؟ قال: بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك»^(١).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: وفي الحديث جواز الحرص على الإستكثار من الحلال في حق لمن وثق من نفسه بالشكر عليه وفيه تسمية المال الذي يكون من هذه الجهة بركة، وفيه فضل الغني الشاكر^(٢).

ذلكم يسر من بعد عسر وفرج من بعد شدة وبيان لعاقبة الصبر وجميل أثره وجميل أجره فاصبر صبراً جميلاً واستعن بالله يعنك ومن يتصبر يصبره الله.

وذاو جواك بالصبر الجميل	ألا فاصبر على الحدث الجليل
فإن الله أولى بالجميل	ولا تظنن بربك ظن سوء
وقول الله أصدق كل قيل	فإن العسر يتبعه يسر
لكان الرزق عند ذوي العقول	فلو أن العقول تجر رزقاً
سيروى من رحيق السلسيل	فكم من مؤمن قد جاع يوماً



(١) رواه البخاري برقم (٢٣٩١).

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٤٨٥).

٤- لطف الله بنبيه يوسف عليه السلام

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كرم الناس؟ فقال: أتقاهم الله، قالوا: ليس عن هذا نسألك! قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله ^(١).

هذا النبي الكريم قصته أحسن القصص، وفي حياته أنفع عظات وعبر، فصل الله قصته في سورة واحدة تلاوتها تأخذ الألباب، وتسبي العقول، وتأسر القلوب، وتمتع النفوس، وتنجذب لها الأسماع، وتتلذذ بتلاوتها الأرواح، وتتألق بترتيلها الألسنة ولست هنا بصدد سرد أحداثها، وبيان جزئياتها؛ وإنما نريد أن نأخذ ببعض الشواهد التي هي محل حديثنا، وذلك ببيان لطف الله بهذا النبي العظيم حيث إنه استشعر جليل هذا اللطف، وجميل تلك الرعاية الربانية، وأثنى على ربه بذلك، فقال في آخر قصته كما قال الله عنه ﴿إِنِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (يوسف: ١٠٠).

واسمحو لي إخوتي أن نستمتع هذه اللحظات، ونقضي هذه الدقائق المعدودات نقلب بأيدينا صفحات، ونرتقي إلى العلياء بقلوبنا درجات، نطالع حكمة الله في لطفه، ورحمته في حفظه، وقربه من أوليائه، هيا لتحلق قلوبنا في سماء الطهر، وتحوم حول ينابيع الحكمة، فرحلتنا رحلة المحبين، وسيلنا سبيل من امتلأ قلبه بحب الدين، وإليكم هذه الوقفات مع قصة سيدنا يوسف صلى الله عليه وسلم الذي فيها عظيم الله به.

١- نجاته من القتل:

تأججت نيران الكيد في قلوب إخوة يوسف فراحوا يدبرون ويخططون لمحوه من حياة أبيه وتآمروا فيما بينهم فقالوا ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُهُ

(١) رواه البخاري رقم (٣٣٥٣) ومسلم رقم (٢٥٢٦).

أَيْكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿يُونُسُ: ٩﴾. ولكن الله صرفهم عن ذلك بمقالة أحدهم ولعله أرفقهم به وأبرهم به ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿يُونُسُ: ١٠﴾.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: لم يكن لهم سبيل إلى قتله؛ لأن الله كان يريد منه أمراً لا بد من إرضائه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها فصرفهم الله عن قتله بمقالة أحدهم وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب^(١).

٢- إخراجهم من الجب:

ذهب إخوة يوسف به إلى الصحراء نفذوا فيه مؤامرتهم النكراء، وجريمتهم الشنعاء فألقوه في البئر، وطرحوه فيه، فكان لا يستطيع الخروج منه وليس له أنيس، والبئر عميق، والصحراء سكون، وفي الليل ظلمات، وجوع وبرد، شدة وكرب، وبعد عن الوالدين، وفي هذه الصحراء الشاسعة الواسعة ألقوه في بئر صغير منها ياله من كرب!! ويا لها من محنة إن ما هو في إنما هو محنة سوف تزول، وشدة سوف تنتهي وتنقضي وسوف يعيش ويذكر أخوه بهذا المرقف يوماً ما فلن ينفذ إلا حكم الله ولن تكون إلا مشيئته وكن يمضي في خلق الله إلا أمر الله.

إن كان إخوته لم يرحوه لم يرفقوا به ويشفقوا عليه فإن الله هو أرحم الراحمين، لا يخذل أولياءه، ولا يتخلى عنهم، لقد استدرجوا يوسف وأخذوه من كنف أبيه بعد ما احتالوا لأخذه وإلحاقهم على أبيهم وبعد ما اجعته لهم له في ذلك ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ ﴿يُونُسُ: ١٥﴾. أي: إنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل البئر، وقد

(١) «تفسير القرآن العظيم».

أخذوه من عند أبيه وهم يظهرون له الإكرام شرخاً لصدرة، وإدخالاً للسروور عليه فلما بعثه يعقوب معهم ضمه إليه وقبله ودعاه، فما تواروا عن عين أبيهم إلا وشرعوا يؤذونه شتمًا وضربًا ثم ربطوه بحبل، ودلوه في الحب، فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافة البئر ضربه على يديه ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط يوسف في الماء فغمره فصعد إلى صخرة في وسطه فقام فوقها ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (يُوسُف: ١٥).

يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وإنزاله اليسر حال العسر: أنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطيباً لقلبه وتثبيتاً له لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا بك من هذا الصنيع.

كيف نجاه الله من هذا الكرب وكيف أخرجه من ظلمات الحب؟ لقد قدر ربنا تبارك وتعالى أن تمر قافلة بالقرب من هذا البئر فأرسلوا واحداً منهم يستقي لهم الماء من ذلكم البئر فلما أنزل الدلو علق به يوسف ثم خرج من تلك الظلمات ليدخل إلى مصر ويواجه محنة أخرى تكون قريبة الفرج، وتكون تلك المحنة الجديدة طريقاً للملك بعد الذل والرق ﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾﴾ (يُوسُف: ١٩).

وظهر إخوة يوسف في الصورة مرة أخرى لا يخلصوا أخاهم من الأسر بل لبيعوه لهذه القافلة، ﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَشَرَّوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾﴾ (يُوسُف: ٢٠).

باعه إخوته بثمن قليل زهيد يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغيبه وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه، والمعنى في هذا أن السيارة لما وجدوه عزموا أن يسروا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم حتى جاءهم إخوة يوسف فزعموا أنه عبد أبى منهم، فاشتروه منهم بذلك الثمن واستوثقوا منهم فيه لئلا يهرب (١).

ودخل يوسف إلى ديار مصر ليبيع فيها بيع الرقيق ولكن الغيب يخفي له لطائف من رحمة الله به وتأهيله لكرامة في مصر أرادها الله له.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في «قصص الأنبياء»: وهذا من جملة لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيري الدنيا والآخرة، قالوا: وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير بها الذي بيده الخزائن (٢). ومعنى ذلك أنه سيعيش في النعيم والخير الغزير والغنى الواسع في بيت العزيز.

٣- حفظه من كيد امرأة العزيز والنسوة:

وهذه محنة أخرى من لون آخر هي أشد وأخطر ولكن الله يحفظ أوليائه ولا يخذلهم أبداً قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتْ الْأُبْرُجَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَفِيءٌ أَحْسَنَ مَثْوًى إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ۝١٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بُرْهَنَ رِيءَهُ كَذَلِكَ لِنَصْرَفَ عَنْهُ الشُّوْءُ وَالْفَحْشَاءُ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ۝١٤ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَهُ، مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ

(١) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (٣٩٥).

(٢) «قصص الأنبياء» (٣٠٦).

الِيمُ ﴿٢٨﴾ قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٩﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ تَالِ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٣١﴾

(يُوسُفُ: ٢٣-٢٨)

لقد برّاه الله بشهادة شاهد من أهلها ودفعت عنه التهمة بذلك، وكون الشاهد من أهلها أقوى في الحجة وأوثق للبراءة وأنفى للتهمة، يقول الشيخ السعدي رحمه الله: هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته وصبره عليها وأعظم أجراً لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع الفعل فقدم محبة الله عليها، وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقى مُكرماً في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب أن راودته التي هو في بيتها عن نفسه أي هو غلامها وتحت تدبيرها والمسكن واحد يتيسر فيه إيقاع الأمر المكروه، من غير شعور أحد ولا إحساس بشر وزادت المصيبة بأن غلقت الأبواب وصار للحل خالياً وهما آمانان من دخول أحد عليهما بسبب تغليق الأبواب. وقد دعت إلى نفسها وقالت: هيت لك، أي افعل الأمر المكروه وأقبل إليه، ومع هذا فهو غريب لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه وهو أسير تحت يدها وهي سيده، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شاب أعزب، وقد توعدته إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن أو العذاب الأليم فصبر عن معصية الله ^(١).

(١) «تفسير السعدي» (٤١٥).

نعم إن الله لطيف بأوليائه رحيم رؤوف بأصفيائه يدفع عنهم البلاء، وينجيهم من الفتن والضراء، ويحفظهم ويحوظهم قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: هذا كله مع أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بديع الجمال والبهاء إلا أنه نبي من سلالة أنبياء، فعصمه ربه عن الفحشاء وحماه من مكر النساء، فهو سيد السادة النجباء، السبعة الأتقياء المذكورين في الصحيحين عن خاتم الأنبياء^(١)، صرف الله عن يوسف هذه المحنة ولكن سرعان ما تلبّدت حوله غيوم الكيد مرة أخرى، وأحاطت به برائن كيد النساء المدمر، حيث سمعت النسوة بما جرى فأنكرن على امرأة العزيز أن تفعل ذلك الفعل المشين وهنا خططت هي لكي تخرج من أنفسهم هذا السخط والإنكار، والتشيع عليها والتقص لها، فأقامت لهن في قصرها وأعدت لكل واحدة منهم متكئاً، وآتت كل واحدة منهن سكيناً تستعملها في الطعام وبينما هن منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة أخرجت عليهن يوسف فلما رأيته أعظمته وأجللته وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن وجعلن يقطعن أيديهن بتلك السكاكين.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٧ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٨ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودَتْهُ عَنِ نَفْسِهِ ۖ فَاسْتَعَصِمَ وَلَكِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لِيُصْغَبَنَّ وَلِيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ

(١) «قصص الأنبياء» (٣٠٧).

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿

(يُونُسَ: ٣٠-٣٤)

قال السعدي رحمه الله: وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء ما كان به آية للناظرين وعبرة للمتأملين، فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر وأعجبهن غاية العجب، وظهر منهم من العذر لامرأة العزيز أرادت أن تزيين جماله الباطن فقالت معلنة لذلك ومبينة لحبه الشديد غير مبالية ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي لَمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَم ﴾ (يُونُسَ: ٣٢)، أي امتنع وهي مقيمة على مرادته لم تزدها مروز الأوقات إلا قلقاً وعجة وشوقاً لوصاله، ولهذا قالت له بحضرتين: ﴿ وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامَرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴾ (يُونُسَ: ٣٢)، لتلجئه بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه، فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعاذ به على كيدهن ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ (يُونُسَ: ٣٣)، وهذا يدل على أن النسوة جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيدهته وجعلن يكدن به في ذلك فاستحجب السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد قال: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (يُونُسَ: ٣٣)، حقاً إن هذا جهل لأنه إشار لذة قليلة منغصة على لذات متابعات، وشهوات متنوعات في جنات النعيم، فدعا يوسف ربه أن يفرج عنه هذا الكرب ولو أدى به إلى غياهب السجون فهي أسلم وأمن من فتنة عمياء تعصف بالقلوب فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم، فلم تزل امرأة العزيز تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل حتى آيسها وصرف الله عنه كيدها،

فذلك من معونة الله ولطفه، وهذا ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة العظيمة والمحنة الشديدة^(١).

٤- من غياهب السجن إلى عرش مصر :

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ بَدَأْهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُؤْنَهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ﴾ (يُوسُفُ: ٣٥). يقول ابن كثير: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أن يسجنوه إلى حين أي إلى مدة، وذلك بعدما عرفوا براءته وظهرت الآيات وهي الأدلة على صدقه وعفته ونزاهته، وكأنهم والله أعلم إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاماً أنه راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع عن الخروج حتى تبين براءته مما نسب إليه من الخيانة فلما تقرر ذلك خرج وهو نقي العرض وذكر السدي أنهم سجنوه لثلاثين ما كان منها في حقه ويبرأ عرضه فيفضحها^(٢)، كيف السبيل إلى الخروج من السجن، وبأي طريقة يخرج؟ هيا الله له الأسباب ودخل معه السجن رجلان فلما رأوا تقواه وأمارات الصلاح على وجهه طلب كل منهما منه أن يفسر له رؤيا رآها قال تعالى: ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يُوسُفُ: ٣٦).

يقول ابن كثير في «قصص الأنبياء»: ظهر لهم من الرأي بعدما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت ليكون ذلك أقل لكلام الناس في تلك القضية وأخذ

(١) «تفسير السعدي» (٤١٦-٤١٧) بتصرف يسير.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/ ٤٩٨).

لأمرها، وليظهروا للناس أنه راودها عن نفسها، فسجن بسببها فسجنوه ظُلماً وعدواناً، وكان هذا مما قدر الله له، ومن جملة ما عصمه به فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم، ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ (يُوسُف: ٣٦)، قيل إن أحدهما ساقى الملك وكان الآخر خبازه يعني الذي يلي طعامه، وكان الملك اتهمها في بعض الأمور فسجنهما، فلما رأى يوسف في السجن أعجبها سمته وهديه وده وطريقته وقوله وفعله، وكثرة عبادته لربه، وإحسانه إلى خلقه، فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه، قال أهل التفسير رأيا في ليلة واحدة أما الساقى فرأى كأن ثلاث قضبان من حبل أورقت وأينعت عناقيد العنب فأخذها فاعتصرها في كأس الملك وسقاه، ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز وضواري الطيور تأكل من السلة الأعلى، فقصاها عليه وطلبا منه أن يعبرهما لهما^(١).

وأخبرهما يوسف ﷺ بتأويل الرؤيا ولكنه قبل ذلك دعاها إلى قضيته الأولى ومهمته الأساسية، دعاها إلى توحيد الله ونبذ عبادة الآلهة الباطلة، وهكذا فليكن الدعاة هكذا فليكن الصالحون في مواقفهم بل وانفعالاتهم وسلوكياتهم أن تكون قضية الدين والعقيدة هي الأصل والأساس الذي يجب أن يُرسى ويؤصل، ويغرس في نفوس الناس، ويعلم لهم، أنها دعوة إلى الله لا يوقفها شيء ولا يقف في سبيلها شيء، فهي كالماء يسري بين الصخور الصلبة الجامدة إذا وقفت أمامه صخرة تفادها برفق وسلك طريقه بلا توقف ليجعل بين هذه الصخور حياة تتلألأ بالنضارة والبهاء، تسر الناظرين وتبهج المشاهدين ها هو يوسف ﷺ يعلمنا هذا

(١) «قصص الأنبياء»: (٣١٠-٣١١) بتصرف يسير.

الدرس العظيم ففي السجن دعوة، وفي الطريق دعوة وفي العمل دعوة وهكذا فلنعي هذا الدرس العظيم.

ولما قام بها وجب عليه من الدعوة والبلاغ فسر لها ما رأيا قال: ﴿بَصْنَجِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ۝﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَنَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿يُوسُفُ: ٤١-٤٢﴾.

قال ابن كثير: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ (يُوسُفُ: ٤٢)، يعني: اذكر أمري وما أنا فيه من السجن بغير جرم اذكر ذلك عند الملك، وفي هذا دليل على جواز السعي في الأسباب، ولا ينافي ذلك التوكل على رب الأرباب وقوله: ﴿فَأَنَسَنَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي: فأنسى الشيطان الناجي منها أن يذكر ما وصاه به يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ (١).

لذلك مكث يوسف ﷺ في السجن بضع سنين، ولكن كان ذلك لحكمة أعلى وغاية أكمل فقد يكون خروجه من السجن بهذه الطريقة خروجًا عاديًا، ولا يصل إلى ما وصل إليه من التمكين فيها بعد، فانظر كيف قضى ربنا وقدر أمرًا آخر ليستخرج به يوسف ﷺ من السجن.

رأى الملك هذه الرؤيا في منامه فأفزعته وأقلقته ولم يجد عند حاشيته والمقربين إليه من يحسن تأويلها أو يفقه تفسيرها، ولما أخبروه بعجزهم عن تأويل الرؤيا واشتد به الأمر، وازداد القلق والأرق عند كل من في القصر تذكر الساقى أمر يوسف

(١) «قصص الأنبياء»: (٣١٢).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذهب إليه في التو واللحظة فكان ما قصه ربنا تبارك وتعالى في كتابه الكريم ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُتُوبَاتٍ خُضَرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيهَا أَلْمَلَاءُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّؤْيَا نَعْبُرُونَ ﴾ (١٣) قَالُوا أَضْغَنْتُ أَخْلَمَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿١٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿١٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُتُوبَاتٍ خُضَرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا حَصَصْتُمْ ﴿١٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِصُونَ ﴿١٩﴾ (يُوسُفُ: ٤٣).

يقول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة، التي يتناول تأويلها جميع الأمة ليكون تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله ويبين من علمه ما يكون له رفعة في الدارين، ومن التقارير المناسبة أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها لارتباط مصالحها به، وذلك أنه رأى رؤيا هالته فجمع لها علماء قومه وذوى الرأي منهم وقال: ﴿ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ ﴾ (يُوسُفُ: ٤٣)، وهذا من العجب أن السبع بقرات العجاف الهزليات اللاتي سقطت قوتهن يأكلن السبع السمان اللاتي كن في منتهى القوة، ﴿ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُتُوبَاتٍ خُضَرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ (يُوسُفُ: ٤٣)، ورأيت سبع سنبلات خضر يأكلن سبع سنبلات يابسات فتحيروا ولم يعرفوا لها وجهًا وقالوا أضغاث أحلام، أي: أحلام لا حاصل لها، ولا تأويل لها ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ (يُوسُفُ: ٤٤)، وهذا أيضًا من لطف الله بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه لو عبرها ابتداء قبل أن يعرضها الملك على الملأ من قومه وعلمائهم فيعجزوا عنها لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن

الجواب وكان الملك مهتمًا بها غاية الاهتمام، وعندما عبرها يوسف وقعت عندهم موقعًا عظيمًا ثم قال الشيخ: فسبحان من خفيت أطافه ودقت في إيصاله البر والإحسان إلى خواص أصفياه وأوليائه^(١).

وعبر لهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الرؤيا على نحو ما ذكرها ربنا في سورة يوسف ولما عرف الملك من خلال ذلك ذكاء يوسف ودقة فهمه، وبراعة تفكيره وتفوقه على غيره في العلم والحكمة رأى أن يخرج من السجن وأن يجعله من أصفياه المقربين، ووزرائه ومستشاريه في أموره، فلما جاءه الرسول يبشره بخروجه رفض يوسف أن يخرج وهذا درس آخر في غاية الروعة نتعلمه من نبي الله يوسف وهو الحلم والأناة قال للرسول كما أخبرنا الله تعالى في كتابه الكريم ﴿ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (يُوسُف: ٥٠).

أنه أراد براءة مما ألصق به الظالمون من أهل تلك المرأة المراودة، وسبحان الملك أرادوا أن يوهموا الناس أنه هو الذي راودها فأبطل الله كيدهم وأظهر للعالمين براءته ونزاهة أخلاقه عن مجرد التفكير في ذلك، وذلك باعتراف المرأة ذاتها وكذلك النسوة اللاتي كن معها، تأمل هذا المشهد الختامي الرائع لقضية مراودة امرأة العزيز ليوسف قال ربنا جل وعلا ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيهِ بِهَا قُلْنَا جَاءَهُ الرُّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَوَدْتُمُ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴾ (٥٢) وَمَا أَتَرَى نَفْسِي إِنْ أَنَا لَمْ أَرَ النَّفْسَ لَا مَارَةً بِالنَّسُوءِ إِلَّا مَا رَجِمْتَنِي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(يُوسُف: ٥٠-٥٣)

(١) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للشيخ السعدي (٣٩٩).

قال ابن كثير رحمه الله: ولما ظهر للملك براءة عرضه ونزاهة ساحته عما أظهر وأعنه مما نسبوا إليه ﴿وَقَالَ لِّلْكُلِّ اَنَّوْنِي يَهْء﴾ (يُوسُف: ٥٠)، أي: أ جعله من خاصتي ومن أكابر دولتي ومن أعيان حاشيتي، فلما كلمه وسمع ما قاله وتبين حاله قال إنك اليوم لدينا مكين أمين، أي: ذو مكانة وأمانة ﴿قَالَ اَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ اَلْاَرْضِ اِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يُوسُف: ٥٥)^(١).

هكذا لطف ربنا بنبيه يوسف بعد كل هذه الابتلاءات وبعد كل هذه المحن، يأتي فرج الله فيصير ممكناً في الأرض صاحب كلمة نافذة وملك كبير - قال الله تعالى ﴿وَكَذٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْاَرْضِ يَتَّبِعُوْا مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُّصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ اَجْرَ الْمُحْسِنِيْنَ ۝٥٦ وَلَا جُرْ اٰلَاخِرَةَ خَيْرٌ لِّلَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَكَانُوْا يَتَّقُوْنَ﴾ (يُوسُف: ٥٦-٥٧).

وهذا كله من جزاء الله وثوابه للمؤمن مع ما يدخره له في الآخرة من الخير الجزيل والثواب الجميل.

وراء مضيق الخوف متسع الأمن وأول مفروح به غاية الحزن
فلا تياسن فالله ملك يوسف خزائنه بعد الخلاص من السجن

٥- اجتماع الشمل في أرض مصر:

بعد أن صار يوسف حاكماً في ديار مصر، وصار على خزائن الأرض أتم الله به لطفه، وأسبغ عليه واسع فضله فجاءه بأهله، حيث جاء إخوته إليه ودار بينه وبينهم ما حكاه ربنا في سورة يوسف وكيف استبقى أخيه وكيف رد الله بصر أبيه إليه من خلال إلقاء قميص يوسف على وجه أبيه، وطلب إخوته من أبيهم أن يستغفر لهم من سوء ما جنوا في حق

(١) «قصص الأنبياء»: (٣١٥-٣١٦).

أخيهم، ودخلوا جميعاً ديار مصر آمين وأكرم أبويه غاية الإكرام، قال ربنا جل وعلا ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ ۝﴾ وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَابَتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿يُوسُفُ: ٩٩-١٠٠﴾.

سبحان الملك زالت المكاره والمخاوف، انقضت الآلام والأحزان زال عنهم النصب والكرب وحصل لهم السرور والهناء، والسعادة والرخاء، وجمعهم الله بعد طول افتراق، وحفظ الله يوسف ورد بصر أبيه وتاب على إخوته.

فهكذا إخواته ربنا لطيف بنا رحيم با فكونوا لله عبيداً حقاً تروا عجائب لطف الله بكم، كلما حققتم العبودية لله كلما أبصرت أبصاركم وبصائركم عظمة ربكم وجلاله، ولطفه ورحمته وحفظه وحكمته فسبحانك يا من لو اطلع خلقك على جميل لطفك بهم أحبوك حقاً سبحانك يا من ألهمتنا رشدنا وحركت جوارحنا الآن لنتكلم عن لطفك بلطفك فأتهم علينا في الآخرة سابغ لطفك ورحمتك يا رب.



لطف الله بنبيه يونس بن متى ﷺ

الأحداث التي انطوت عليها قصة ذي النون وصاحب الحوت يونس عليه السلام تشير وتشير بعظيم لطف الله وسعة جوده ورحمته، قال أهل التفسير بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل نينوى من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عز وجل فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين ظهرانيهم ووعدهم نزول العذاب بهم بعد ثلاث.

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد من السلف والخلف: فلما خرج من بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم رجعوا إلى الله عز وجل وصرخوا وتضرعوا غليه وتمسكوا لديه وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات وكانت ساعة عظيمة هائلة فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم سببه ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (يونس: ٩٨).

أي: هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكاملها^(١)، إلا قوم يونس.

قال الحافظ بن حجر رحمته الله: روى بن أبي حاتم من طريق عمرو بن ميمون، بإسناد صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: وأصبح يونس فأشرف على القرية فلم ير

(١) «قصص الأنبياء»: (٣٤٤-٣٤٥).

العذاب وقع عليهم وكان في شريعتهم من كذب قتل، فانطلق مغاضباً حتى ركب سفينة فاضطربت بهم السفينة فقال لهم يونس: إن معهم عبداً أبقا من ربه، وأنها لا تسير حتى تلقوه، فقالوا: لا نلقيك يا نبي الله أبداً، قال فاقترعوا فخرج عليه ثلاث مرات، فألقوه فالتقمه الحوت فبلغ به قرار الأرض فسمع تسبيح الحصي فنادى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧) (١).

مكث يونس في هذه الظلمات يعج بتسبيح رب الأرض والسموات حتى سُمع صوته المحبب المألوف إلى الملأ الأعلى فأوحى الله إلى الحوت أن يلقيه وأنبث عليه شجرة تواريه قال الله جلا وعلا في كتابه الكريم: ﴿وَإِنْ يُوَسَّسْ لَكُمْ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٦) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٣٧) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٣٨) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٣٩) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٠) لَلِيتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤١) ﴿فَبَدَّنْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ (١٤٢) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ (١٤٣) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٤) فَتَأَمَّنُوا فَمَزَّجْنَاهُمُ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (الزافات: ١٣٩-١٤٨).

ولا زالت دعوة يونس مستجابة باقية لكل من دعا بها، قال رسول الله ﷺ: «دعوة ذي النون إذا دعا بها وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له» (٢).

وخرج ابن أبي حاتم وغيره عن أنس يرفعه أن يونس عليه السلام لما دعا في بطن الحوت قالت الملائكة، يا رب هذا صوت معروف من بلاد غريبة فقال الله عز وجل أما

(١) «فتح الباري»: (٦/ ٥٢١).

(٢) رواه الترمذي وأحمد عن سعد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٨٣).

تعرفون ذلك؟ قالوا: من هو؟ قال: عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل رفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة؟ قال: نعم، قال: يا رب، أفلا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى، قال: فأمر الله الحوت فطرحه بالعراء^(١).

(١) رواه ابن جرير في «التفسير» (٣٣/ ١٠٠)، إسناده ضعيف كما قال محققا «جامع العلوم والحكم» (٣٤٢/ ١).

لطف الله بإمام المرسلين سيدنا محمد ﷺ

منذ ما يزيد عن ألف وأربعمائة عام أشرقت شمس النبوة فملأت الكون ضياءً ورياً، وهدي وعلمًا، فأحييت القلوب والنفوس وأنقذت الأرواح من ظلمات الكفر الخالكة، وطهرت العقول من خبائث الجهل المهلكة، فطابت الدنيا واهتزت أرجاؤها بهجة وفرحاً وتعطرت أنفاس النسيم سعادة وسروراً، وتألقت وجه الأرض نضارة ونوراً، إنها تلكم الفترة من الزمان التي هي كالشامة في تاريخ الأيام، وكالدرة في جبين الدنيا، وكالشمس المشرقة في دياجير الظلام، تلكم الفترة الوضيئة الوضاعة التي عرفت فيها الدنيا معنى الحياة وحقيقة الحياة وغاية الحياة، عرفت فيها الدنيا كيف يحترم الإنسان إنسانيته، وكيف يوظف عقله وقلبه وروحه وكل إمكانياته في إقامة صرح العبودية لله، على أرض تُسبح بحمد الله وتحت سماء تسجد لله جل جلاله.

أرأيت نوراً أشرق في الأرض مرة فما غرب ولا انطفأ بل لا زال ضياؤه فينا يهديننا ولسوف يبقى ذلكم النور في الأرض، حتى يبعث من في القبور بإذن ربنا الحكيم الغفور أي نوع من النور ذلك الذي غرسه للصطفى في القلوب، فانتقل من جيل إلى جيل واهتدت بهداه أجيال من بعدها أجيال؟!

أي نوع من الطهر ذلك الذي أزال به رسول الله ﷺ أوصار النفوس والأرواح ومساوئ الأخلاق والعادات؟!

أي بلسم وترياق ذلك الذي عالج به رسول الله ﷺ صخور الشرك المتجذرة في القلوب والمتأصلة في النفوس؟!

من في العالمين أثر في تاريخ الدنيا وأحداث التاريخ كما أثر رسول الله ﷺ ١٩ من في العالمين بني صرحاً كصرح الإسلام العظيم ١٩ والذي أعلاه وبناه بفضل الله رسولنا الكريم.

وأرواح الأئمة والدة	إمام المرسلين فداك روعي
وأعراض الأجابة والتقاء	رسول العالمين فداك عرضي
ومالي يا نبي المكرمات	ويا علم الهدى يفديك عمري
ونفس أولي الرئاسة والولة	ويا تاج التقى تفديك نفسي
بمنزلة الشهادة والصلاة	فعرضك عرضنا ورؤاك فينا
تضاء به أسارير الحياة	وذكرك يا رسول الله زاد
وهديك مشرق في كل ذات	وغرسك ثمرة في كل صقع
بغير هداك يا علم الهداة	وما لجنان عدن من طريق
وأنت لدائها آسي الأساة	رفعت عن البرايا كل إصر
ومنك هويتي وسمو ذاتي	فمنك شريعتي وسكون نفسي
لأخلاق العلا والمكرمات	ولي فيك اهتداء واقتفاء
بعلمك أو بحلمك والأناة	وفيك هدايتي وشفاء صدري
ومن كفيك إرواء الظماة	ومنك شفاعتي في يوم عرض
وتحت لوائك أطواق النجاة	رسول الحق في ذكراك قربي
ضياء واعتلى صوت الهداة	عليك صلاة ربك ما تجلى

تعالوا إخواننا نعرض لبعض مظاهر لطف الله بحبيبه ونيه ومصطفاه تعالوا نعطّر القلوب والأرواح والأفواه بالحديث عن قدوتنا وأسوتنا رسول الله ﷺ وعلى آله ومن اهتدى بهداه.

أولاً - قيض الله له زوجة حكيمة حليلة وعماً شقيقاً:

تزوج النبي ﷺ بخديجة بنت خويلد رضي الله عنها وكان لها من الحكمة والفضل ما لا يدرك وكان لها من المنزلة عند الله مكانة عالية في العالمين فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب^(١)، وضعت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها مالها وجهدها في خدمة الدعوة إلى الله، وكانت بمثابة الوزير الصادق والناصح الوفي الأمين وكانت تزيل كربها وتواسيه وتطمئن قلبه.

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعب في الليالي ذوات العدد - قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني

(١) رواه البخاري برقم (٣٨٢٠)، ومسلم (١٤٣٢).

فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝﴾ (العلق: ١-٣)، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان اسراً قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا بن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا بن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ياليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو أخرجني هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي^(١).

وكانت أمنا خديجة رضي الله عنها مثلاً صادقاً، وقدوة حقيقية وأسوة للزوجة الصالحة العاقلة التي تعين زوجها على العبادة والطاعة، وتحمل أعباء رسالة ودعوة إلى كافة البشر، وتسعى بكل سبيل إلى تفريج همهم وتفتيس كربهم، ولهذا الفهم السديد والعقل

(١) رواه البخاري في بدء الوحي (١/ ٣٠)، ومسلم (٢/ ١٩٧) الإتيان.

الكبير، اختارها الله واصطفها لتكون زوجة لسيد البشر في بداية أمره وفي أول دعوته فرضي الله عنها وأرضاها.

يقول الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: وخديجة مثل طيب للمرأة التي تكمل حياة الرجل العظيم، إن أصحاب الرسالات يحملون قلوبًا شديدة الحساسية، ويلقون غبنًا بالغًا من الواقع الذي يريدون تغييره، ويقاسون جهادًا كبيرًا في سبيل الخير الذي يريدون فرضه، وهم أخرج ما يكونون إلى من يتعهد حياتهم الخاصة بالإناس والترفيه، والإدراك والمعونة وكانت خديجة سباقه إلى هذه الخصال وكان لها في حياة محمد ﷺ أثر كريم^(١).

وكذلك كان أبو طالب درعًا حصينًا لرسول الله ﷺ في وجوه المشركين، فكان يدافع عنه ويحميه ومن أبيانه المشهورة في زوده ودفاعه عن رسول الله ﷺ قوله.

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة	وأبشر وقرب بذاك منك عيونا
ودعوتني وعرفت أنك ناصحي	ولقد صدقت وكنت ثم أميننا
وعرضت دينًا قد عرفت بأنه	من خير أديان البرية ديننا
لولا الملامة أو حذار مسبة	لوجدتني سمحًا بذاك ميننا

(١) «فقه السيرة» للغزالي (٨٠).

يقول الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: إن أبا طالب رغم بقاءه على الشرك واستمسাকে بدين الآباء ظل حي العاطفة، ظاهر الحذب على ابن أخيه وهو مدرك كل الإدراك ما سوف تجره هذه الدعوة من متاعب عليه وعلى أسرته بيد أن إعزازه لمحمد وتأذيه من مواجهته بما يكره حملاه على ضمان الحرية له، بل على التعمد بحمايته وهو يبلغ عن ربه.

وأبو طالب من رجال مكة المعدودين، كان معظمًا في أهله، معظمًا بين الناس فما يجسر أحد على إخفار ذمته أو استباحة بيضته وكان بقاؤه مع أهل مكة محترمًا للأوثان، من أسباب امتداد نفوذه ورعايته حقوقه^(١).

ولهذا كان النبي ﷺ حريصًا كل الحرص على هدايته للإسلام فبذل كل سبيل هداية عمه ولكن الله العليم الحكيم جل وعلا نفذ قضاؤه الذي قد قدره وقال لرسوله ﷺ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (التكْوِين: ٥٦).

وعن المسيب أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل فقال: أي عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزا إلا يكلماه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فنزلت: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا

(١) «فقه السيرة» (١٠٦) قلت: ولو أسلم أبو طالب لما كان له أن يدافع عن النبي ﷺ بل وكان هو الآخر ممن يؤذي ويعذب فكان في بقاءه على الكفر سيئًا يسبغ له الدفاع عن ابن أخيه عجيبة وحمية وكان هذا أمكن في الدفاع ولحماية والله أعلم.

لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ

﴿

(التوبة: ١١٣)

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: «ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»^(١).

ثانياً- أيد الله رسوله بالمعجزات الباهرة:

كان رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم أكثر الرسل معجزة وأبرهم آية، وأظهرهم برهاناً، فله من المعجزات ما لا يحصى ولا يعد، ومن أهم المعجزات التي أتاهها الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم، وقد تحدى الله البشر قاطبة ولا زال التحدي قائماً تحداً أن يأتيوا بمثل القرآن فعجزوا، ثم خفف التحدي إلى أن دعاهم أن يأتيوا بسورة واحدة فعجزوا كذلك وسوف يظلون عاجزين ونقولها بكل ثقة ويقين قال ربنا جل وعلا ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الأنعام: ٨٨). ثم قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ مَفَرَّتْ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (هود: ١٣). ثم وصل التحدي إلى أقل درجة فعجز البشر عنه قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (نزل: ٣٨). وكذلك في سورة البقرة أعاد الله جل وعلا التحدي بسورة منه وأخبر تعالى أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً لا في الحال ولا في المال لا في الحاضر ولا في

(١) رواه البخاري (١٣٣/٧) (مناقب الأنصار)، ومسلم (٨٤/٣) (الإيمان).

المستقبل فأبي برهان وحجة أنصع من ذلك على عظمة هذا الدين، وأنه هو الحق الذي لا ريب فيه من رب العالمين جل جلاله **قَالَ الرَّحْمَنُ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** (البقرة: ٢٣)

ومن المعجزات الباهرة والآيات الظاهرة معجزة الإسراء والمعراج قال تعالى **﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِنْ أَمْسٍ جِدَّ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ، لِثَرِيهِ، مِنْ بَيْنِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** (الأنعام: ١). وقد ذكرت هذه الرحلة مفصلة في كتب السنة وكتب السيرة فأرجع إليها إن شئت ^(١).

ومن معجزات رسول الله ﷺ انشقاق القمر، فقد روي في البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما ^(٢)، قال الله جل وعلا **﴿اقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾** (القمر: ١).

ومن معجزات رسول الله ﷺ تكثير الماء ونبعه من بين أصابعه الشريفة ﷺ من ذلك ما رواه البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: عطش الناس يوم الحديبية والنبي ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ فجهدش الناس نحوه فقال: مالكم؟ قالوا ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة فجعل الماء يشوب بين أصابعه، كأمثال العيون فشربنا

(١) «صحيح مسلم» (كتاب الإيمان، باب الإسراء) رقم (١٦٢).

(٢) رواه البخاري برقم (٣٨٦٨) ومسلم برقم (٢٨٠٢).

وتوضأنا، قلت: كم كنتم؟ فقال: لو كنا مائة ألف لكفانا كنا خمسة عشرة مائة^(١)، ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحانت صلاة العصر فالتمس الوضوء فلم يجدوه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده في ذلك الإناء فأمر الناس أن يتوضأوا منه فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضأوا من عند آخرهم^(٢).

ومن ذلك ما رواه مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا جابر ناد بوضوء، فقلت: ألا وضوء، ألا وضوء، ألا وضوء؟ قال: قلت يا رسول الله ما وجدت في الركب قطرة، وكان رجل من الأنصار يبرد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أشجابه له على حمارة من جريد^(٣)، قال: فقال لي: انطلق إلى فلان بن فلان الأنصاري، انظر هل في أشجابه من شيء؟ قال: فانطلقت إليه فنظرت فيها فلم أجد فيها إلا قطرة في شجب منها، لو أني أفرغه لشربه يابسه قال فاذهب فأتني به، فأتيته به فأخذه بيده فجعل يتكلم بشيء لا أدري ما هو ويغمزه بيديه (أي يعصره) ثم أعطانيه فقال: يا جابر ناد بجفنة، فقلت: يا جفنة الركب فأتيت بها تحمل فوضعتها بين يديه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده الجفنة هكذا، فبسطها وفرق بين أصابعه ثم وضعها في قعر الجفنة، وقال خذ يا جابر فصب علي، وقل باسم الله فصبيت عليه

(١) رواه البخاري برقم (٣٥٧٦)، ومسلم برقم (١٨٥٦) وانظر ثقة جابر وبقينه حسن يقول: لو كنا مائة ألف لكفانا.

(٢) رواه البخاري برقم (٣٥٧٣)، ومسلم برقم (٢٢٧٤).

(٣) الأشجابه هي القرب القديمة، والحمارة من جريد هي أعواد تعلق عليها القرب.

وقلت: بسم الله فرأيت الماء يفور من بين أصابع رسول الله ﷺ ثم فارت الجفنة، ودارت حتى امتلأت فقال: يا جابر ناد من كان له حاجة بهاء قال: فأتى الناس فاستقوا حتى رواء، قال فقلت: هل بقي أحد له حاجة؟ فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي مملأى^(١).

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سننه من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنه، قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه، فأسر إلي حديثاً لا أخبر به أحداً أبداً، وكان رسول الله ﷺ أحب ما أستتر به، في حاجته هدف أوحاش نخل، فدخل يوماً حائطاً من حيطان الأنصار، فإذا جمل قد أتاه فجر جر وذرفت عيناه فمسح رسول الله ﷺ سراته وذفراه فسكن، فقال: من صاحب الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: هولي يا رسول الله، فقال: أما تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكها الله إنه شكاً إلي أنك تجيعه وتدثبه^(٢).

ومن معجزاته ﷺ تسليم الحجر عليه فقد روى مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن^(٣).

ومن معجزاته ﷺ تسبيح الطعام بين يديه ففي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفاً، كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقل الماء، فقال: اطلبوا لي فضلة من ماء، فجاءوا

(١) رواه مسلم برقم (٣٠١٣).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٥٤٩)، وأحمد في «المسند» (١/٢٠٤).

(٣) رواه مسلم برقم (٣٥٧٩).

بإناء به ماء قليل، فأدخل يده في الإناء ثم قال: حي على الطهور المبارك، والبركة من الله
فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ولقد كنا نسمع تسبيح
الطعام وهو يؤكل^(١).

والمعجزات غير هذه كثيرة جداً كحنين الجذع واستجابة الشجر لأمر رسول الله
ﷺ وهذا من باب لطف الله برسوله وتأييده له وكذلك استجابة دعائه
ﷺ وإخباره ﷺ بالغيبات.

ثالثاً- حماية النبي وحفظه من أعدائه:

ومن لطف الله برسوله حفظه وعصمته من أعدائه المتربصين به المصيرين على
قتله والقضاء عليه فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً لأن الله جلا وعلا قال له ﴿وَاللَّهُ
يَعِصْمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٧). وكم لهذا الحفظ
الإلهي للحبيب المصطفى النبي ﷺ من شواهد كثيرة فمن ذلك....

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟
قال: فقليل: نعم فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو
لأعفرن وجهه في التراب قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي زعم ليطأ على
رقبته، فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبه ويتقي يديه، قال فقليل له: مالك؟
فقال: إن بيني وبينه لخنقاً وهو لا وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: (لو دنا
مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً)^(٢).

(١) رواه البخاري برقم (٣٥٧٩).

(٢) رواه البخاري برقم (٤٩٥٨)، ومسلم واللفظ له برقم (٢٧٩٧).

عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه : غزونا مع رسول الله ﷺ حينئذ فولى صحابة النبي ﷺ فلما غشوا عن رسول الله ﷺ نزل عن البغلة ثم قبض قبضة من تراب من الأرض ثم استقبى بها وجوههم فقال: شأهت الوجوه، فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينه تراباً، بلك القبضة، فولوا مدبرين، فهزمهم الله عز وجل وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين^(١).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قبل نجد فأدر كنا رسول الله ﷺ في واد كثير العضاة، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها، قال: وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر قال: فقال رسول الله ﷺ : إن رجلاً أتاني وأنا نائم فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي، فلم أشعر إلا والسيف صلتاً في يده فقال لي: من يمنعك مني؟ قال: قلت: الله، ثم قال في الثانية: من يمنعك مني: فقلت الله، قال: فشام السيف فيها هو ذا جالس ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فتحت خيبر أهديت رسول الله ﷺ شاه فيها سم، فقال: رسول الله ﷺ اجمعوا لي من ها هنا من اليهود فجمعوا له فقال لهم رسول الله ﷺ إني سألكم عن شيء فهل أنتم صادقون عنه؟ قالوا نعم يا أبا القاسم فقال لهم رسول الله ﷺ من أبوكم؟ قالوا: أبونا فلان، فقال رسول الله ﷺ : كذبتكم بل أبوكم فلان، فقالوا: صدقت وبررت، فقال:

(١) رواه مسلم برقم (١٧٧٧).

(٢) رواه البخاري برقم (٢٩١٠)، ومسلم برقم (٨٤٣).

هل أنتم صادقوني عن شيء إن أنا سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، إن كذبناك عرفته كما عرفته في أبينا فقال لهم رسول الله ﷺ من أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسثوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبداً، ثم قال لهم: هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم، فقال هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً؟ فقالوا: نعم فقال: ما حملكم على ذلك؟ فقالوا أردنا إن كنت كذاباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك (١).

وذكر ابن إسحاق أن أم جميل امرأة أبا هب لما بلغها نزول قول الله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المائدة: ١). وذكره بها ذكرها الله مع زوجها من الذم أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد ومعه أبو بكر، وفي يدها فهر من الحجارة، فلما وقفت عليهما لم تر إلا أبا بكر، وأخذ الله تعالى يبصرها عن نبيه ﷺ فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجونني والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه (٢).

وذكر الحافظ ابن كثير عليه رحمة الله عند تفسيره لقول الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ (المائدة: ١١)، قال: وذكر محمد بن إسحاق بن يسار ومجاهد وعكرمة وغير واحد أنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحي لما جاءهم يستعينهم في دية العامرين،

(١) رواه البخاري برقم (٥٧٧).

(٢) رواه أبو يعلى (٥٣)، والحميدي (٣٢٣)، وغيرهما وحسنه محقق «الشفاء» (١/٣٦٨).

ووكلوا عمرو ابن جحاش بن كعب بذلك، وأروه إن جلس النبي ﷺ تحت الجدار واجتمعوا عنده، أن يلقي تلك الرحى من فوقه، فأطلع الله النبي ﷺ على ما تمالؤوا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه فأنزل الله هذه الآية فيهم، وقوله تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التكوير: ١٦٠)، يعني من توكل على الله كفاه ما أمه، وحفظه من شر الناس وعصمه ثم أمر رسول الله ﷺ أن يغدوا إليهم فحاصروهم حتى أنزلهم فأجلاهم^(١).

وأورد البخاري في صحيحه من حديث سراقه بن مالك بن جعشم قال: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله وأبي بكر دية كل واحد منها لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدليج إذ أقبل رجل منهم حتي قام علينا ونحن جلوس فقال: يا سراقه إني قد رأيت أنفًا أسودة بالساحل أراها محمدا وأصحابه، قال سراقه فعرفت أنهم هم فقلت له: إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرس وهي من وراء أكمة. فتحبسها علي، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت رجة الأرض، وخفضت عليه حتى أتيت فرس فركبتها فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخيرت عنها فقممت فأهويت يدي على كنانتي فاستخرجت منها الأزام فاستقممت بها آخرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزام، تقرب بي، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض، حتى بلغنا

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣٥).

الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها، فنهضت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عثان ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يزراني ولم يسألاني إلا أن قال: أخف عنا، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم، ثم مضى رسول الله ﷺ^(١).

قال الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله: ومن عصمة الله رسوله حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومُعانديها ومُترفيها مع شدة العداوة والبغضة، ونصب المحاربة له ليلاً ونهاراً، بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته العظيمة، فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب إذا كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية، ولو كان أسلم اجترأ عليه كفارها وكبارها ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيراً ثم قبض الله له الأنصار، فبايعوه على الإسلام، وعلى أن يتحول إلى دارهم وهي المدينة فلما صار إليها منعه من الأحمر والأسود وكلما هم أحد المشركين وأهل الكتاب سوء كاده الله، ورد كيده عليه، كما كاده اليهود بالسحر وحاه الله منهم وكلما هم أحد المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله، ورد كيده عليه، كما كاده اليهود بالسحر فحماه الله منهم، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء،

(١) رواه البخاري برقم (٣٩٠٦).

ولما سمه اليهود في ذراع تلك الشاه بخير أعلمه الله به وحماه الله منه، ولهذا أشباه كثيرة جدًا يطول ذكرها^(١).

وفي تأمر المشركين على قتل رسول الله ﷺ في حديث الهجرة قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب، قال: لما اجتمعوا له وفيهم أبو جهل ابن هشام، فقال وهم على بابي، إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنات كجنات الأردن، وإن لم تفعلوه كان له فيكم ذبح ثم بعثكم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها.

قال وخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده ثم قال: نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم، وأخذ الله تعالى أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات ﴿يَسَّ ١﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥﴾ (يونس: ١-٥). إلى قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (يونس: ٩). حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات ولم يبق رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم أت ممن لم يكن معهم، فقال: ماذا تنتظرون ها هنا؟ قالوا: محمدًا، قال: خيبيكم الله، قد والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلًا إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليًا على الفراش متغطيًا ببردة رسول الله ﷺ.

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٨٥).

فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام علي عليه السلام عن الفراش، فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي كان حدثنا ^(١).

وقبل ذلك وأثناء رحلة الهجرة استمر المشركون في طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم والصديق وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد كمن في غار ثور حتى تهدأ ثورة البحث، ومع أخذ كل أسباب الحيلة، ومع بذل كل الأسباب في النجاة، وصل المشركون إلى الغار، وأصبحوا واقفين أمام باب الغار، ومعهم سيوفهم وأسلحتهم، واشتعل لهيب غيظهم وتأججت نيران العداوة في قلوبهم، ولو رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يمهلوه لحظة واحدة، ولكن ربي حفيظ عليهم، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا، فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: ما ظنك باثنين الله ثالثهما ^(٢)، وأعمى الله المشركين عنها ونجى الله نبيه والصديق من كيد الكافرين، وفي هذا يقول ربنا جل جلاله ﴿إِلَّا نَصُورُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(التوبة: ٤٠)

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/١٠٣)، برقم (٥٠٣)، وإسناده مرسل وقد حسن بعضهم إسناده لمجيته من طريق آخر ضعيف والله أعلم.

(٢) رواه البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١).

رابعاً- نصرة رسول الله ﷺ على أعدائه:

هذه المعارك المباركة التي قادها الرسول القدوة محمد ﷺ رأينا فيها مدى حنكة وحكمة ودرية النبي ﷺ العسكرية بل إنه ضرب أروع مثل وأعظم قدوة للقادة العسكريين، ورأينا فيها كذلك تأييد الله لرسوله بالملائكة تارة، وبالرعب الذي ألقي في قلوب أعدائه تارة أخرى إلى غير ذلك من جند الله التي لا يعلمها إلا هو.

ونضرب لذلك مثلاً واحداً وهو غزوة الخندق حيث أقبل المشركون بقيادة أبي سفيان بن حرب ومعه عشرة آلاف مقاتل، - هو عدد كبير جداً بالنسبة لعدد المسلمين كيف يصدون هذا العدوان الغاشم؟! وبعد أن استشار النبي ﷺ الصحابة رضوان الله عليهم أمر بحفر خندق حول المدينة وكان النبي ﷺ يحفر مع أصحابه بل كان يحمل التراب بنفسه فقد روي البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلده، بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعتُه يرتجز بكلمات بن رواحة وهو ينقل من التراب يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صالينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألي قد دبغوا علينا إن أرادوا فتنة أبينا

قال ثم يمد صوته بآخرها وجاء لمشركون وعسكروا قريباً من المدينة، ثم فوجئوا بهذا الخندق الذي لم يعهدوا مثله في الحروب من قبل واستمر بقاؤهم قرب

المدينة يقومون بمناورات ومحاولات لاقتحام ذلك الخندق، ولكن ليوث الإسلام نجحوا في صد ذلك ومنعه وهنا سلط الله على أعدائه جندياً من جنوده فهزم موهم شر هزيمة وانسحب جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل دون أن يحقق ذرة نصر بل بقاء بالهزيمة وكفى الله المؤمنين القتال، أتدري ما هذا الجندي إنه الريح، قال الله عز وجل ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (الاحزاب: ٩)، قال مجاهد: سلط الله عليهم الريح فكفأت قدورهم ونزعت خيامهم حتى أظعنهم^(١).

وفي صحيح مسلم من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب، وأخلفتنا ريح شديدة وقر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟ فسكتنا فلم يجبه أحد، فقال: قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم، فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم: قال اذهب وأتني بخبر القوم ولا تدعهم علي، فلما وليت من عنده جعلت كأنها أمشي في حمام، حتى أتيتهم فرأيت أبا سفيان يضلي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبِد القوس، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تدعهم علي، ولو رميته لأصبته فرجعت وأنا أمشي في مثل حمام، فلما أتيت أخبرته بخبر القوم، وفرغت

(١) «فتح الباري» (٧/ ٤٦٤).

قررت فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عبادة كانت عليه يصلي فيها فلم أزل نائمًا حتى أصبحت قال: قم يا نومان^(١).

قال الحافظ ابن حجر: وفي رواية عند البيهقي في الدلائل قال حذيفة رضي الله عنه: وبعث الله عليهم الريح فما تركت لهم بناء إلا هدمته، ولا إناء إلا أكفأته^(٢).

قلت: وفي حديث حذيفة رضي الله عنه رحمة من الله به إذ مشى وكأنه في حمام حيث ذهب ذلك البرد الشديد عنه، وكذلك فيه رحمة من الله بأبي سفيان، إذ لو أطاع حذيفة نفسه فقتله لمات على الكفر، فأنجاه الله في هذا الموطن ليسلم بعد ذلك ويموت موحدًا بالله، وفيه رحمة من الله بالمسلمين إذ طرد عنهم عدوهم وهزم الأحزاب وحده ونصر عبده وأعز جنده.

خامسًا - قيض الله لرسوله صحابة أوفياء كرام

قام هؤلاء الصحابة بتحمل أعباء الإسلام وأوذوا ﷺ فصابروا وصبروا وبلغوا دين الله، وبذلوا أرواحهم، ودماءهم وأموالهم لنصرة الإسلام، ولست أدري ماذا أذكر من مواقف الصحابة الآن، وفي حياة كل واحد منهم مواقف يعجز عنها الحصر، فهم أصفى الخلق قلوبًا، وأزكى العالمين نفوسًا^(٣)، اختارهم الله واصطفاهم لصحبة خاتم الأنبياء ﷺ فكان كل فرد منهم أمة ها هو مصعب يفتح المدينة بالقرآن، وها هو جعفر وخبيب وحنظلة وغيرهم يبذلون دماءهم لله، يريدون بذلك جنته ورضاه ويكفي أن نذكر موقفًا واحدًا ليكون تنبيهًا على ما سواه.

(١) رواه مسلم برقم (١٧٨٨).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (٤٦٣/٧).

(٣) انظر: كتاب «الآلئ المستطابة في عظمة الصحابة» للمؤلف تقديم الدكتور/ أحمد فريد.

حيث استشار رسول الله ﷺ الناس فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى، اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك، من دونه حتى تبلغه.

فقال له الرسول ﷺ خيراً ردعاً له، ثم قال: أشيروا علي أيها الناس، وإنا يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله: إنا براء، من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليهم نصرة، إلا ممن دهمه بالمدينة، فلما قال ذلك قال له سعد بن معاذ والله لكانك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، فقال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا وموآثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، قوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسير على بركة الله.

وفي رواية: لعلك أن تكون خرجت لأمر أحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله لك فامض، فصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعاد من

شئت، وسألم من شئت، وخُذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت.

فُسِّر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ثم قال: سيروا وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم^(١).

لطف الله برسوله في آخر حياته ﷺ :

لقد أتم الله على رسوله نعمته، فانتشر في ربوع الدنيا دينه ودعوته، وبلغ الرسالة أكمل بلاغ، وترك أمته على محجة بيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك، وأنشأ النبي ﷺ جيلاً ربانياً كان الواحد منهم أمة إماماً قُدوة، فلما دخل الناس في دين الله أفواجاً وفتح الله لرسوله البلاد وقلوب العباد كان هذا مؤذناً بقرب الأجل بعد تمام البلاغ روى الشيخان من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا بكر كان يصلي لهم في وجع رسول الله ﷺ الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين، وهم صفوف في الصلاة، كشف رسول الله ﷺ ستر الحجر، فنظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم رسول الله ﷺ ضاحكاً، قال: فبهتنا ونحن في الصلاة من فرحنا بخروج رسول الله ﷺ ونكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ خارج للصلاة، فأشار إليهم أن أتموا صلاتكم، قال: ثم دخل رسول الله ﷺ فأرخى الستر، قال: فتوفي رسول الله ﷺ من يومه ذلك^(٢).

(١) رواه أحمد برقم (٣٦٩٨) قال الألباني بهامش فقه السيرة (ص: ٢٣٥): والحاكم (٣/ ٣٤٩)، وصححه ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي: إسناده حسن.

(٢) رواه البخاري برقم (٦٨٠)، ومسلم برقم (٤١٩).

وفي صحيح البخاري من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر على النبي صلى الله عليه وسلم وأنا مسندته إلى صدري، ومع عبد الرحمن سواك رطب يستن به، فأتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بصره، فأخذت السواك فقمضته ونفضته وطيبته ثم دفعته إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستن به، فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استن استناناً قط أحسن منه، فما عدا أن فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يده أو إصبعه ثم قال: «يا الرفيق الأعلى» ثلاثاً ثم قضى، وكانت تقول: مات بين حاقتني وذاتني ^(١).

وفيه من حديثها رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يحيد أو يخير، فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة، غشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت، ثم قال: اللهم في الرفيق الأعلى، فقلت: إذا لا يختارنا، فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا وهو صحيح.

وهكذا ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا بعدما غير هو وجهها وزين باطنها وظهرها بزينة متألثة من الإيمان بالله جل جلاله، وإذا كانت المعونة تأتي على قدر المثونة، وحفظ الله لعبده يكون على قدر الولاية والقرب فما بالكم بأعظم وأتقى وأعبد خلق الله الله؟ ما ظنكم برسول الله الذي رسم خطة رشد ومنهاج هدى يهتدي به كل من يريد السعادة ويقتفيه كل من يريد الجنة. ويتأسى به كل سائر إلى الله وليس للجنة طريق بعد المصطفى يؤدي إليها إلا طريقه هو، ولن تستطيع أبداً دخول جنة الله إلا

(١) رواه البخاري برقم (٤٤٣٨).

بهدي رسول الله ﷺ وهذه بعض الإشارات للطف الله بالمصطفى وحفظ الله لخليله ورسوله ﷺ إذ لو ذكرنا كل ما في الباب لطال المقام جدًا، فأرسل عقلك وقلبك مع كل موقف ستجد مواقف كثيرة تؤيده وتشابهه، وقدم لربك القربات وابذل في سبيله الطاعات واعلم بأن ربك لا يضيع أجر العاملين، ولا يخذل أولياءه وعباده الصالحين اللهم اجعلنا منهم بفضلك ومنك وكرمك يا أرحم الراحمين.

الفصل الثالث

الشفاء بعد المرض

الصحة والسقم، والراحة والألم، والسعادة والكدر، كل ذلك لا يكون إلا بقدر، وقد يكون نزول المرض بالعبد من لطف الله به ففي المرض فوائد كثيرة وفضائل عظيمة يؤتاها المؤمنون الصابرون الموقنون ففيه كفارة الذنوب، وطهارة القلوب، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حطَّ به الله عنه سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها ^(١). وقال رسول الله ﷺ: ما يصيب المسلم من نصبٍ ولا وصبٍ ولا همٍ ولا حزنٍ، ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها ^(٢). وعن أم العلاء رضي الله عنها قالت:

(١) رواه البخاري (١٠/١١٠)، ومسلم (١٤/١٩٩١).

(٢) رواه البخاري برقم (٥٦٤١).

عادني رسول الله ﷺ وأنا مريضة فقال: أبشري يا أم العلاء، فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياه كما تذهب النار خبث الذهب والفضة^(١).

ففي المرض كفارة للذنوب ورفعة لدرجات، وتعرض لشواب الصبر، وذل النفس وقربها من الله، وتنبيه للنفس من الغفلة، وشكر لنعمة العافية عند بلوغها، وقد يكون في المرض منع للعبد من فعل شر، ونجاة من فتنة، وسلامة من معصية، ها هو رجل من الناس مرض فلما أحس بطول المرض ضجر وجزع وجعل يشكو إلى الخلق حاله، ويقول لو عوفيت لأصنعن كذا وكذا من الخير، فلما عوفي ذهب ليزني!! فهل العافية خير لمثل هذا أم المرض!؟

وذاك رجل آخر كان غارقاً في خبث الربا، ينجس بدنه وأبدان أولاده بأكل الحرام، فلما نزلت به الأمراض والآلام، واشتدت به ضراوة المرض، وأزعجه السهر والقلق والأرق، وأحس بقرب الأجل، ندم على ما فعل وجرت دموعه وارتجفت أعضاؤه خوفاً من القدوم على الله ثم عوفي فثبت على توبته واستقام على دين الله وطاعته، وهجر المعاصي وطهر نفسه منها، ليس المرض في حق هذا نعمة من أجل النعم!؟

عن عثمان بن الهيثم، قال: كان رجل بالبصرة من بني سعد، وكان قائداً من قواد عبيد الله بن زياد، فسقط يوماً من السطح فتكسرت رجلاه، فدخل عليه أبو قلابة يعوده، فقال له: أرجو أن يكون ذلك خير لك، فقال يا أبا قلابة وأي خير في كسر رجلين جميعاً فقال ما ستر الله عليك أكثر.

(١) رواه أبو داود برقم (٣٠٩٢)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٧١٤).

فلما كان بعد ثلاث ورد عليه كتاب ابن زياد أن يخرج فيقاتل الحسين بن علي عليه السلام ، فقال لمن جاءه بالرسالة: قد أصابني ما ترى واعتذر عن ذلك.

فلما كان بعد سبعة أيام جاء الخبر بمقتل الحسين بن علي فقال الرجل، رحم الله أبا قلابه، لقد صدق، إنه كان خيرًا لي^(١)، اجتمع وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط فقال الثوري: قد كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم، فوددت أني ميت، فقال له يوسف بن أسباط ولم؟ قال: أخاف الفتنة.

فقال يوسف ولكني لا أكره طول البقاء فقال: الثوري: ولم تكره الموت؟ قال: لعلني أن أصادف يومًا أتوب فيه وأعمل صالحًا، فقليل لو هيب بن الورد: فأني شيء تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئًا أحب ذلك إليّ أحببه إلى الله، فقبل الثوري بين عينيه، وقال روحانية ورب الكعبة^(٢).

وتعالوا نعرض مشاهد من لطف الله بعباده في المرض ونرى كيف أن الشفاء سهل ميسور لو صدق العبد في تضرعه لله، ولجأ إليه ودعاه، فربنا على كل شيء قدير وليس شيء على الله بعزيز.

١- مشاهد من الشفاء بالرقية:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناسًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا في سفر فمروا بحي من أحياء العرب، فاستضافوهم فلم يضيفوهم فقالوا لهم: هل فيكم راقٍ؟ فإن سيد الحي لديغ أو مصب، فقال رجل منهم: نعم: فأتاه فرقاه

(١) «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٢٣٨/٣).

(٢) «مدارج الساكين» لابن القيم (٢٥/٢).

بفاتحة الكتاب فبرأ الرجل فأعطى قطيعاً من غنم، فأبى أن يقبلها وقال حتى أذكر ذلك للنبي ﷺ فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال: يا رسول الله والله ما رقيت إلا بفاتحة الكتاب، فتبسم وقال: ما أدراك أنها رقية؟ ثم قال: خذوا منهم واضربوا إلي بسهم معكم^(١).

ومن السم ما شفى:

ذكر التنوخي في «الفرج بعد الشدة»: عن عبد الوهاب بن محمد بن مهدي، أنه شاهد رجلاً مشلولاً حمل من أصبهان إلى عسكر مكرم، لكي يعالج من مرضه، فوضع الرجل في دكان خال مهجور، ولم يوجد إلا هذا الموضع ليسكن فيه، وكان هذا المكان به عقارب كثيرة ولم يدر الرجل ولا أهله بذلك، وصعد أهل الرجل وأصحابه إلى سطح هذا المكان في الليل وتركوه، وكان طريقاً لا يمكن أن يتقلب ولا أن يتحرك ولا أن يتكلم، وعندما نزلوا إليه وجدوا الرجل جالساً، ويتكلم بكلام فصيح فأحضروا بعض أهل الطب لينظروا في أمره ففتشوه فرجد أثراً للسعة عقرب في إبهام رجله اليسرى، فقال له: انتقل الآن من هذا المكان، فإنه مشهور بكثرة العقارب وقد لسعتك واحدة منها فأبرأتك بإذن الله، وعشت بشيء ما عاش به أحد قط، وإن لسعتها بردت الشلل وأزالته ولم تتجاوزته، وسيعقب ذلك حرارة شديدة فأصبر لها حتى أعالجك، وانتقل لثلاثاً تلسعك أخرى فتتلف، وبرأ الرجل وشفى بإذن الله وكان الشفاء في سم العقرب فسبحان من بيده ملكوت كل شيء^(٢).

(١) رواه البخاري برقم (٢٢٧٦)، ومسلم برقم (٢٢٠٧).

(٢) «الفرج بعد الشدة» للتنوخي.

٢- هذا لطف الله:

هذه قصة نقف من خلالها على لفظة عجيبة من لطف الله سبحانه وتعالى، كانت هذه المرأة صالحة تكثر من ذكر الله وفعل الصالحات والخيرات وكانت تألف وتؤلف، وتكثر التضرع والدعاء، وفي ذات يوم شعرت بألم شديد جدًا في فخذه، وسارعت بأخذ المهدئات والمسكنات ولكن الألم يزداد ويشتد وتردد زوجها على كثير من المستشفيات بحثًا عن علاج فلم يجد دواء ومافر إلى لندن بزوجه ليبحث عن علاج لهذا الألم المقلق المؤرق وفي إحدى المستشفيات الكبرى هناك اكتشف الأطباء أن هناك تعفنًا في دماء هذه المرأة ويبحثوا عن مصدره فإذا هو في موضع الألم من الفخذ، وعندئذ قرر الأطباء أن المرأة تعاني من سرطان في الفخذ، وهو السبب في هذا الألم وهذا العفن في الدم، وقرروا أنه لا بد من الإصرار ببتتر رجل المرأة من أعلى الفخذ حتى لا ينتشر المرض.

وبدأت عملية البتر فعلاً والمرأة مستسلمة لقضاء الله وقدره، ولسانها لا يكف ولا يفتر عن الدعاء والتضرع إلى الله. وبدأ تحديد موضع البتر بدقة شديدة، ووضع منشار كهربائي كبير ليقوم بهذا البتر بسرعة وفي هذه اللحظات الحرجة وهذه الدقائق العصيبة ورهبة الجميع وقع شيء عجيب ولأول مرة في غرفة العمليات، إن المنشار الذي سيقوم بالقطع بمجرد أن تحرك بعد توصيله بتيار الكهرباء انكسر المنشار، واندحش جميع الأطباء وبهت كل الحضور، ثم أعيد تركيب منشار آخر وبمجرد أن يقترب من فخذ المرأة ينكسر المنشار للمرة الثانية، وتعجب كل الحاضرين وحاولوا مرة ثالثة فحدث نفس الشيء ثلاث مرات متتالية وينكسر المنشار!! ووقفوا حائرين ينظر بعضهم إلى بعض، وبعد مشاورات سريعة قرر الأطباء إجراء عملية جراحة

للفخذ المصاب بالمرض وهنا حدث شيء أشد دهشة، وأعجب مشهداً، عندما وصل المشراط إلى أحشاء الفخذ رأى الأطباء بأم أعينهم قطعاً متعفنًا بصورة كريهة، وبعد عملية يسيرة نظف فيها الأطباء ذلك المكان وعقموه، صحت المرأة وشفيت وزالت الآلام نهائياً ولم يبق لها أثر.

ولما نظرت المرأة إلى رجلها صحيحة لم تمس بأذى ووجدت زوجها يتحدث مع الأطباء وهم يسألونه هل حدث وأجريت للمرأة عملية جراحية في فخذها، وعرف الأطباء أنه كان قد وقع حادث مروري وكالت المرأة قد جرحت فيه جرحاً عميقاً في ذلك الموقع، وبقي فيها ذلك القطن المتعفن الذي سبب الألم، فسبحان من عم لطفه وفاض بره وجل جلاله سبحانه ويحمده!!^(١).

٣- هل يمكن أن أرى الدنيا مرة أخرى؟

هذه قصة رجل سوري متزوج ولديه ولدان، وقع له حادث أثناء عودته من عمله، وبعد سقوط من فوق دراجته البخارية قام يتحسس جسده فلم يجد جروحاً ولا كسوراً، ولكنه بعد عشر دقائق سمع صوتاً يشبه الانفجار المكتوم في رأسه، وشعر بأن في عينه جسم غريب، وهنا توقف ليسأل أحد أصدقائه أن ينظر في عينه لعله يجد فيها شيئاً، ولكنه لم ير شيئاً، ولما عاد إلى بيته شعر بأنه لم يعد قادراً على أن يرى بعينه اليمنى، وبعد أربع سنوات فقد النظر بعينه اليسرى. وأصابه العمى تماماً، وأجمع الأطباء أنه لا أمل بالنسبة إلى العينين.

(١) هذه الحادثة وردت في أكثر من مصدر منها على سبيل المثال الشفاء بعد المرض للحازمي (ص: ٨٠).

ومما زاد كرب هذا الرجل وغمه أنه أصيب بعد ذلك بشلل تام في يديه، وشلل شبه تام في رجليه، وبعد مراجعة أهل الطب اكتشف أنه لا أمل أيضًا في علاج هذا الشلل، بل إن التقارير الطبية وصلت إلى المراكز الطبية الكبرى في أوروبا وجاءت النتيجة كذلك أنه لا علاج، ولا داعي لاستمرار المحاولات لأن الإصابة أسفرت عن انسداد في الشريان المركزي الذي يغذي الجسم.

وهنا يقول هذا الرجل المبتلى الذي بلغ به الكرب مداه، ولم يبق له إلا تضرعه إلى الله عز وجل يقول: لم أحزن ولجأت إلى الطبيب الواحد الأحد وهو الله سبحانه وتعالى، واستحضرت كثيرًا قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَبَدَأَ مِرْصُتٌ فَهُوَ يَشْفِينُ﴾ (الشعراء: ٨٠).

يقول: وفي ليلة العيد ذهبت زوجتي وأولادي للمبيت عند أصهارى لقضاء العيد بينهم، وذهبت أنا بمفردي لقضاء العيد عند والدي، وفي نفس الليلة أردت النهوض لقضاء حاجتي فلم أستطع وجاءت أمي لمساعدتي ولكنني سقطت على ظهري، وكانت الصدمة قوية جدًا وأسقطت على رأسي وفقدت الوعي تمامًا، وبعد لحظات بدأت أشعر أن أخي ووالدي يساعداًني على الوقوف، وشعرت بإحدى يدي بدأت تتحرك، وفعلاً تحركت يدي، وأحسست بيدي الأخرى تتحرك كذلك، وبأ للعجب، وبأ للدهشة، ما هذا؟ إنني بدأت أرى وأبصر، رأيت وجه أمي ووجه أخي، والأعجب من ذلك أن يدي اليسرى كان بها ضمور وتجمعات سرعان ما عادت اليد إلى وضعها الطبيعي، وهنا لم أتمالك نفسي وقبلت قدم أمي لأنني شعرت أن الله عز وجل شفاني استجابة لدعائها فطالما دعت لي، طالما بكيت وهي تدعو الله عز وجل أن يشفيني، سبحانه الملك، رأيتم كيف حالي؟ رأيتم كيف شفاني الله عز وجل، لا أكاد

أصدق أني شفيت ولكن الله على كل شيء قدير، فالحمد لله الذي شفاني الحمد لله الذي عافاني.

ولما ذهبت إلى الطبيب ذهل وسكت لسانه وظل صامتاً فترة طويلة، ثم فحصني وقال الشرايين المقفلة أصبحت مفتوحة وصار الدم يجري فيها بشكل طبيعي جداً. وكم في واقع الناس من أمثال هذه القصة كم من مريض شفاه الله ورزقه قوة بعد ضعفاً وعزة بعد ذلاً، لو تأملت في واقع الناس ممن عافاهم الله لرأيت عجب العجائب، وكل شيء بقدر الله وكل أمر يجري في الكون فلحكمة أرادها الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولا يعقلون^(١).

٤- شفاء بالعسل:

قال الله جلا وعلا في كتابه الكريم: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ أَنْ اتَّخِذْ مِن لِّجَالِ بُيُوتِكُمْ وَاغْشَىٰ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِّي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(النحل: ٦٨-٦٩)

فالعسل أحد الشفاءين الذين ذكرهما عبد الله بن مسعود في الأثر الصحيح عنه قال عليكم بالشفاءين العسل والقرآن^(٢). يقول ابن القيم عليه رَحْمَةُ اللهِ: فجمع بين

(١) «الشفاء بعد المرض» للحازمي (ص: ٩١-٩٣) بتصرف، نقلاً عن جريدة الصباحية عدد ٢٢

عام ١٤١٢.

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٠٠)، وابن ماجه برقم (٣٤٥٢) وإسناده صحيح عن عبد الله بن مسعود.

الطب البشري والإلهي وبين طب الأبدان وطب الأرواح وبين الدواء الأرضي والدواء السمائي^(١).

وتأمل هذا الحديث الرائع الذي يفيض باليقين والثقة ويغرسهما في القلوب، في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن أخي استطلق بطنه، وفي رواية يشنكي بطنه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اسقه عسلًا، فذهب ثم رجع فقال: قد شفينه فلم يغن عنه شيئًا مرتين أو ثلاث كل ذلك يقول له: اسقه عسل، فقال له في الثالثة أو الرابعة: صدق الله وكذبت بطن أخيك». فسقاه فبرأ^(٢). يقول ابن القيم تعليقًا على هذا الحديث، وفي تكرار سقيه العسل معنى طبي بديع، وهو أن الدواء يجب أن يكون له مقدار وكمية بحسب حال الداء، إن قصر عنه لم يزل بالكلية، وإن جاوز أذهى القوي، فأحدث ضررًا آخر، فلما أمره أن يسقيه العسل سقاه مقدارًا لا يفي بمقاومة الداء، ولا يبلغ الغرض، فلما أخبره على أن الذي سقاه لا يبلغ مقدار الحاجة فلما تكرر تردده إلى النبي صلى الله عليه وسلم أكد عليه المعادة ليصل إلى المقدار المقاوم للداء. فلما تكررت الشربات بحسب مادة المرض برأ بإذن الله وفي قوله صلى الله عليه وسلم: صدق الله وكذب بطن أخيك، إشارة على تحقيق نفع هذا الدواء، وأن بقاء الداء ليس لقصور الدواء نفسه، ولكن لكذب البطن، ولكثرة المادة الفاسدة فيه، فأمر بتكرار الدواء لكثرة المادة، وليس طب النبي صلى الله عليه وسلم

(١) «زاد الماد» (٣/ ١١٠).

(٢) رواه البخاري برقم (٤/ ٧٥) ومسلم برقم (٧/ ٢٢)، ومعنى استطلاق البطن فساد الهضم واعتلال المعدة.

كطب الأطباء، فإن طب النبي ﷺ متيقن قطعي إلهي صادر عن الوحي ومشكاة النبوة، وكمال العقل، وطب غيره أثثه حدس وظنون وتجارب.

ولا ينكر عدم انتفاع كثير من المرضى بطب النبوة، فإنه إنما ينتفع من تلقاه بالقبول، واعتقاد الشفاء به، وكمال التلقي به، بالإيمان والإذعان فهذا القرآن الذي هو شفاء لما في الصدور إن لم يتلق هذا التلقي لم يحصل به شفاء الصدور من أدوائها بل لا يزيد المنافقين إلا رجسًا إلى رجسهم ومرصًا إلى مرضهم، فطب النبوة لا يناسب إلا الأبدان الطيبة، كما أن شفاء القرآن لا يناسب إلا الأرواح الطيبة والقلوب الحية^(١).

٥- الشفاء بطب النبوة:

روى البخاري ومسلم في صحيحهما واللفظ لمسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نفرًا من عُكل ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام، فاستوخوا الأرض، وسقمت أجسامهم فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبون من أبواها وألبانها؟ فقالوا: بلى فخرجوا فشربوا من أبواها وألبانها فصحوا. فهؤلاء القوم لما مرضت أجسادهم وآذاهم من المرض شكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فوصف لهم دواء بأن يشربوا من ألبان الإبل وأبواها ففعلوا ذلك فشفاهم الله عز وجل وصحت أجسامهم^(٢)، واستدل العلماء بهذا الحديث على طهارة بول وروث ما يؤكل لحمه وكذلك استدلوا بالبراءة حيث لم يرد دليل بنجاسة بول وروث ما يؤكل لحمه، والأصل في الأشياء الطهارة إلا

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١١٠) بتصرف يسير.

(٢) رواه البخاري برقم (٦٨٠٤) ومسلم برقم (٦٧١).

ما دل على نجاسته فإذا صح الدليل حكم بنجاسة هذه العين وإلا فالأصل الطهارة والله أعلم.

هذا وهناك نوع من العلاج النبوي لمز أصيب بعين حاسد وهذا العلاج يعرف بالاستغسال وهو أن يغسل الحاسد وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وداخله إزاره ثم يصب هذا الماء على المحسود، وشاهد ذلك ما رواه الإمامان مالك وأحمد من حديث أبي أمامة سهل بن حنيف أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة حتى إذا كانوا بشعب الخرار من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف، وكان رجلاً أبيض حسن الجسم والجلد، فنظر إليه عامر بن ربيعة أخو بني عدي بن كعب وهو يغتسل فقال ما رأيت كاليوم ولا جلد غبأة فلبط سهل، فأتى رسول الله ﷺ فقليل له: يا رسول الله هل لك في سهل، والله ما يرفع رأسه وما يفتيق؟

قال: هل تتهمون فيه أحدًا؟ قالوا: نظر إليه عامر بن ربيعة، فدعا رسول الله ﷺ عامر فتغيط عليه وقال: علام يقتل أحدكم أخاه؟ هلا إذا رأيت ما يعجبك بركت؟ ثم قال له: اغتسل له فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجله وداخله إزاره في قدح ثم صب ذلك الماء عليه، فصبه رجل على رأسه وظهره من خلفه، ثم يكفأ القدح وراءه ففعل ذلك فراح سهل مع الناس ليس به بأس^(١).

هكذا شفي سهل بن حنيف في الحال لما وصف له النبي ﷺ هذا العلاج الناجع، وفي هذا الحديث فوائد منها:

(١) رواه البخاري (٩٣٨/٢)، «كتاب العين»، وابن ماجه (٢٨٢٨).

١- أن العين حق والله تعالى قال: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (الفلق: ٥).
فأثبت ربنا الحسد وأمر بالاستعاذة من شر الحاسد.

٢- أنه قد يقع الحسد من مؤمن فاضل تقي وكما قال شيخ الإسلام: ما خلا جسد من حسد، ولكن الكريم يخفيه والثلثم يبيده.

٣- إذا رأى المسلم من أخيه شيئاً يعجبه فليبرك عليه وليقل ما شاء الله لا قوة إلا بالله اللهم بارك لأخي فيما رزقته.

٤- الصحابة هم أفضل الأمة ديناً وعلماً وخلقاً ولكن لا نثبت العصمة إلا لرسول الله ﷺ.

٥- من طرق علاج العين الاستغسال وكذلك الرقية وفي الصحيحين عن أمنا عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول للمريض: «بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا، يشفى سقيمنا بإذن ربنا»^(١).

٦- أنه إذا أشكل على الإنسان شيء في دينه ودنياه ينبغي أن يذهب إلى أهل العلم يستفتيهم ويسألهم.

وروى البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي، رجلاً من الأنصار فأمر عليهم عبد الله ابن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز فلما دنوا منه وقد غربت الشمس، وراح الناس قال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم فإني منطلق أو متلطف للبواب لعلني أن أدخل، فأقبل حتى

(١) البخاري (٢٠٦/١٠) (الطب)، ومسلم (السلام) (١٨٣/١٤).

دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجة، وقد دخل الناس فهتف به البواب، فدخلت فكمنتُ، فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علق الأغاليق علي ود قال: فقممت إلى الأقاليد فأخذتها ففتحت الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده، وكان في علالي له، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت عليّ من داخل قلت: إن القوم نذروا بي لم يخلصوا إلي حتى أقتله، فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا أدري أين هو من البيت، فقلت: أبا رافع، قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف، وأندهش فما أغنيت شيئاً، وصاح فخرجت من البيت فأمكنث غير بعيد، ثم دخلت إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع^(١)؟ فقال: لأملك الويل، إن رجلاً في البيت ضربني قبل بالسيف، قال: فأضربه ضربة أنخسته ولم أقتله، ثم وضعت ضبيب السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره فعرفت أني قتلت، فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقاي، فعصبتها بعمامة ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته.

فلما صاح الديك قام الناعي على السور فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابي فقلت: النجاة فقد قتل الله أبا رافع، فانتهيت إلى النبي ﷺ فحدثته، فقال لي: أبسط رجلك: فبسطت رجلي فمسحها، فكانها لم أشتكها قط^(٢).

(١) غير صوته وأوهمه أنه بعض خدمه.

(٢) رواه البخاري برقم (٤٠٣٩).

فانظر كيف انكسرت رجل هذا الصحابي الجليل ثم بمجرد أن مسح عليها النبي ﷺ بيده الشريفة المباركة شفاها الله وأذهب عنه الألم تمامًا.

٦- شفاء كالبرق:

يقول ابن القيم في حديثه عن الرقي: وأما شهادة التجارب، فهي أكثر من أن تذكر، وذلك في كل زمان، وقد جربت أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أمورًا عجيبة لاسيما مدة المقام بمكة فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة، بحيث تكاد تقطع الحركة مني وذلك في أثناء الطواف وغيره، فأبادر إلى قراءة الفاتحة، وأمسح بها على محل الألم فكانه حصاة تسقط جربت ذلك مرارًا عديدة.

وكنت آخذ قدحًا من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مرارًا فأشربه فأجد به من النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء، والأمر أعظم من ذلك ولكنه بحسب قوة الإيمان وصحة اليقين^(١).

٧- القرآن أعظم شفاء:

بعد هذا الكلام الماتع الذي ذكرته عن العالم الرباني ابن القيم عليه رحمة الله، توجد مئات بل آلاف الشواهد على ذلك ولكن أسوق قصة من عصرنا لنعلم أن فرج الله قريب من كل من دعاه، وشفاهه ميسور لكل من رجاه وسأل الله إياه.

هذه فتاة محبة لكتاب الله كثيرة التلاوة لآيات القرآن، أصيبت هذه الفتاة بمرض شديد مقلق مؤرق مؤلم، هذا المرض هو سرطان الكبد، وبقيت في المستشفى مدة

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص: ٤٨).

طويلة، وإذ بالأطباء يقولون لأخيها إن حالتها سيئة جداً، وهي تتردى من سبيء إلى أسوأ، وقد تموت في لحظة، ويا له من خبر وبأهلها من مأساة!!

وكانت الفتاة تستشعر هذا الخطر وتحس بهذا المصائب الأليم، فطلبت من أخيها مصحفاً لكي تقرأ فيه، وأخذت تتلوا آيات القرآن بكرة وعشية صباحاً ومساءً، وكلما قرأت نفثت في كفيها ثم مسحت بها جسدها، واستمرت على ذلك ليالي وأياماً صابرة ثابتة طامعة في رحمة ربها وشفائه.

وكانت المفاجأة العجيبة للأطباء، رأوا أن الفتاة أصبحت حالتها تتحسن يوماً بعد يوم وأن بوارد الشفاء تظهر على وجهها فقد جرت الدماء في وجهها ونبض الوجه بالحيوية من جديد وبدأ جسمها ينشط في حركته وتعجب الأطباء من ذلك وسألوا أخاها هل أعطيتموها دواء؟ فقال أخوها: إنها استعملت أفضل دواء، إنه القرآن جعلت تقرأ وتنثت على جسدها، فشفيت وعادت إليها العافية، وتجدد في جسدها النشاط فسبحان من يحيي العظام وهي رميم^(١).

وهنا نسوق واقعتين سمعتهما من جراح القلب والداعية الدكتور خالد الجبير حفظه الله.. يقول وردت إلينا حالة لطفل عمره أربعة شهور وهو مصاب بشريان تاجي أيسر شاذ حيث أن هذا الشريان بدلاً من أن يخرج من الأورطي خرج من الشريان الرئوي وهذا يسبب له جلطات متكررة في القلب، قال: فأجريت له عملية بدأت في الساعة الثامنة صباحاً وظللت ومن معي في غرفة العمليات حتى الساعة الرابعة والربع فجراً، ولازلنا لم ننته فقلنا لزميلي الدكتور عبد الرؤوف الصعيدي: قد

(١) «الشفاء بعد المرض» (ص: ٩٦-٩٧) نقلًا عن كما تدين تدان لسيد الرفاعي.

برأت الذمة لا أعتقد أننا نستطيع أن نصنع شيئاً فقال: لا بأس قلت: إذا، دعنا نفصل عنه الجهاز فإن عاش فخير وإن مات فقد أدينا ما علينا.

لأننا نعمل لمدة واحد وعشرين ساعة. وفي الرابعة والثالث أغلقت جهاز القلب والرئة الصناعية وإذا بالضغط ينخفض ٦٠-٥٠-٤٠-٣٠ وبعد دقيقتين نظرت فإذا بالضغط يعلو ٤٠-٥٠-٦٠-٧٠-٨٠-٩٠-١٠٠-١١٠ فنظرت على دكتور التخدير فقلت له هل أعطيته شيئاً يقوي القلب، قال لا، فنظر فإذا بالطبيب زميلي قد وضع يده اليمنى على قلب المريض يرقيه، فسكت حتى انتهى من رقيته، فقلت له: بماذا رقيته؟ قال: بالفاتحة وأسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك سبعا، وبالمعوذات وآية الكرسي. فقلت: سبحان الله من ذا الذي أحياه، من ذا الذي شفاه؟ إنه الله الذي يحيي العظام وهي رميم.

والثانية يقول عنها مريض من المرضى عمره ثلاث سنوات كانت العملية الجراحية له في منتهى الصعوبة فناقشت أهله في إجرائها من عدمه، قلت: الحالة خطيرة جدا، قالوا: توكل على الله وأجرها، ونُسلم أمرنا وأمره الله قال: فبدأت في إجراء العملية من الصباح حتى الساعة الثانية عشرة ليلاً، ثم جئت به على الإنعاش، وعندما وصل ضغط القلب في الجهاز إلى درجة ٢.٥ عرفت عندها أنه لا فائدة، ورأيت كذلك أنه لا بول فيه، والبول من أهم علامات الحياة عند جراح القلب، فإذا تبول المريض يرتاح الطبيب، وإذا لم يتبول فليعلم أن هناك مشكلة، وفي الساعة الثانية أحسست بالتعب الشديد فقلت للطبيب المناوب أنا تعبت افعل أنت ما تراه مع هذا الولد، فإنني أعتقد أنه ليس هناك أمل في أن يبقى حياً، فقد فعلت معه كل ما أستطيع، وبينما أنا خارج من الإنعاش إذ بأم لأحد الأطفال المرضى تقول لي: يا دكتور إن ابنتي لا تنام،

فأرجو أن تقرأ عليها لتنام، قال: وعندئذ تذكرت ذلك المريض الذي هو في الرمق الأخير فقلت في نفسي: لماذا لا أقرأ عليه، لعل الله يشفيه بعد أن عجزت أنا في علاجه؟ قال: فرجعت مباشرة إلى هذا الولد المريض والله يا إخوة والله لقد حدث هذا انقلوها عني فوالله قد حدثت رأيت قدرة ربي لا إله إلا هو، وضعت يدي اليمنى على صدر المريض فوق جرحه، وجعلت أنظر لجهاز مراقبة الضغط أمام عيني، وجعلت أرقيه، أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك وظللت أكررها وفي المرة الخامسة والسادسة والسابعة نظرت إلى الجهاز فإذا بالضغط القلب يرتفع ٥٠-٦٠-٧٠-٨٠ وبمجرد أن قلبت الرقية سبع مرات إذ بالضغط يصل إلى ١٢٠ وبعد خمس دقائق إذ بالبول ينهمر منه، وبعد عشرة دقائق ارتفعت حرارة الجسد وصارت طبيعية جداً، قلت سبحانه الله من الذي أحياه؟ من الذي شفاه؟ إنه الله^(١).

أورد الحافظ بن رجب في ذيل طبقات الختابة قال: حكى أبو الحسن بن حمدان الجرائحي قال: مرضت مرضاً شديداً، شنج أعضائي وأقمت سبعة عشر يوماً لا أتحرك، وتمت الموت، فلما كان وقت العشاء جاءني الموفق ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ وقرأ علي آيات من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الأنعام: ٨٢].

ومسح على ظهري فأحسست بالعافية وقام فخرج فقممت من ساعتني إلى بيت الوضوء، فلما أصبحت دخلت الجامع، فصليت الفجر خلف الموفق وصافحته فعصر يدي، وقال: احذر أن تقول شيئاً، فقلت: أقول وأقول.

(١) «أبواب منسية» محاضرة مسجلة.

٨- شفاء عصري بماء زمزم:

امراة فلسطينية كافرة أصيبت بمرض السرطان في بعض أجزاء جسمها، ثم انتشر المرض في جميع أجزاء الجسم حتى أجمع الأطباء أنه ليس هناك أي أمل في الشفاء، فلترجع إذاً إلى بلادها فتموت بين أهلها، وإذ بطبيب ذكي من الهند يفتح الله على قلبه، عندما ذهب إلى العمرة في مكة وبينما هو يشرب من ماء زمزم تذكر هذه المرأة المريضة، فقال في نفسه لماذا لا أحضر لها ماء زمزم؟ ألم يقل فيه النبي ﷺ: «أنه طعام وشفاء وسقم».

قال فأحضرت لها كمية كبيرة وقلت لها هذا ماء زمزم، نحن المسلمون نعتقد أن فيه شفاء، اشربي منه بنية الشفاء، وتيقني أن ربك سيشفيك، اشربي مرتين أو ثلاثاً في اليوم، داومت المرأة على ذلك لمدة خمسة أشهر، وبعدها شفيت بإذن الله كأن لم يصبها شيء، كأن لم تمرض من قبل ولما شفيت أسلمت، فمن الذي أحياها إنه الله قلت: سبحان الملك انظر كيف أحياها الله حياتين حياة بالإسلام من موت الكفر وظلمته، وحياة أخرى من آلام المرض وشدته.

وهناك قصة أخرى لكنها لامرأة باكستانية يقول الشيخ لازالت أذكر قصتها منذ واحد وعشرين سنة، وكانت هذه المرأة مصابة بفشل كلوي مزمن، وقرر الأطباء بأنه لا بد من نقل كلية إليها، فأدخلناها المستشفى يوم الأربعاء حتى يتم إجراء الفحوصات الكافية قبل إجراء العملية يوم السبت حيث سيتم نقل كلية إليها من أمها، وفي مساء الأربعاء، جاء والدها وقال أنتم ستجرون لها العملية يوم السبت أليس كذلك؟ قلت: بلى، قال: فهل يمكن أن آخذها اليوم وآتيكم بها يوم الجمعة مساءً، قلت: لا بأس، وذهب بها، ثم انتظرنا أن يأتي في الموعد المحدد فلم يأت، بحثنا عنه فلم نعثر عليه،

وبعد أربعة أشهر اتصل بي الطبيب الاستشيري أثناء وجودي في المستشفى وقال لي: انزل بسرعة، قلت ماذا تريد قال: أتذكر تلك المرأة الباكستانية المصابة بالفشل الكلوي المزمن؟ قلت: نعم، وأين هي؟ قال هي عندي، ولكن نتيجة التحاليل الخاصة بها بلغت درجتها مائة بالمائة، وليس عندها أثر لمرض. ما عاد عندها فشل كلوي، فذهبنا إلى أبيها وقلنا له: ماذا حدث؟ قال: لا شيء، ولكن جاءني صديق لي يوم الخميس وقال لي: قد يكون شفاء ابتك في ماء زمزم، فلماذا لا تسقيها ماء زمزم؟ فذهب بها إلى مكة ولم يطعمها شيئاً ولم يسقها شيئاً إلا ماء زمزم.

قال أبوها: فأخذتها معي إلى مكة، وغسلت الكلية في أول يوم ثم سقيتها ماء زمزم فاكتشفت أنها لا تحتاج إلى غسل الكلية فصرت أسقيها ماء زمزم أربعة أشهر ثم جئتكم بها. قال: لقد شفاها الله وعافاها ببركة ماء زمزم، فسبحان الملك العليم الحكيم.

٩- شفاء بالاستغفار:

هذه قصة رجل من الصالحين انكسرت رجله إثر حادث وقع له في الطريق إلى مدينة رسول الله ﷺ يقول: ولما ذهبت إلى المستشفى أخبرني الأطباء بأنه لابد من بتر الساق، وذلك لأنها أصيبت بالعفونة، قالوا: لابد أن توقع على الموافقة على بتر الساق، لابد من بتر الساق بسرعة قال: نظروني مدة أفكر، قالوا: لابد أن تسرع لأن العفن بدأ في الانتشار في خلايا الرجل، فلابد من البتر قبل انتشار المرض في الجسم كله.

قلت: اتركوني قليلاً، فجعلت أستغفر الله وأستغفر الله وظلمت أدعو الله وأستغفر ثم غفوت قليلاً، ثم نمت فرأيت في نومي رسول الله ﷺ فقال لي: لن تقطع رجلك وسوف تمشي عليها بأمر الله، فقلت: أنت رسول الله؟ قال: نعم، أنا رسول الله ولن تقطع رجلك وسوف تمشي عليها، فاستيقظت مستبشراً برؤيا رسول الله ﷺ، وبعد نصف ساعة جاء إلى الطبيب، وسأل هل ستوقع؟ قلت: لا لن أوقع، قال: إن الأمر فيه خطورة كبيرة، قلت: لن أوقع، قال وكان بجوارى في المستشفى رجل مريض وفي وقت الزيارة جاء إليه أناس يبدو عليهم أنهم أصحاب وجاهات، ومكانة فقلت لهم أيها الإخوة أسألكم بالله أن تساعدوني في أن أنتقل إلى المستشفى العسكري أو المستشفى التخصصي، أريد أن تأتوني بواسطة من أجل ذلك، قالوا: وماذا بك فحدثهم بما وقع لي وبما رأيت في منامي، فأخذوا اسمي وذهبوا وبعد ثلاثة أيام جاءت ممرضة في طائرة وقالت: أنت فلان؟ قلت: نعم، فقالت: عندنا أمر بنقلك إلى المستشفى العسكري فوراً، فبكيت والله على هذه النعمة وخشيت أن لا أشكرها، قال: فأخذوني إلى المستشفى العسكري وقابلني أحد الأطباء الكبار، وقال لي

سأجري لك خمس عمليات، وبعد العملية الخامسة بأمر الله ستتسابق أنا وأنت في الجري، وسوف تسبقني بإذن الله.

قال فأجرى لي العملية الأولى ثم الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة وصدق في الخامسة شفيت بإذن الله فالحمد لله على نعمته. إنها شفاه ربه جل جلاله بالدعاء والاستغفار لاسيما وقد كان صاحب قيام الليل ودعاء وطاعات كثيرة ونوافل يتقرب بها إلى الله عز وجل^(١).

قصص عصرية:

يقول الدكتور الأشقر حَفَظَهُ اللهُ: هذا عجوز قد جاوز التسعين من عمره، وكان جنديًا في جيش الخلافة العثمانية، وأتم تدريبه هناك قبيل الحرب العالمية الأولى، أصيب في شبابه بداء أضعف قواه، ونحل له جسمه، وقرر الأطباء أنه لا أمل في شفائه فأدخل إلى حجرة الميئوس من شفائهم وكانوا يسمونها غرفة عزرائيل^(٢)، ثم أفاق هذا الرجل من إغماءته ونظر حوله فإذا به يرى أناسًا يلفظون أنفاسهم الأخيرة وآخرون قد لفظوا، فقام من مكانه وتحامل على نفسه وفتح باب الغرفة، ومشى حتى وصل إلى حنفية ماء، وفتحها ووضع رأسه تحتها، وجاء المشرفون على علاجه فذهلوا وقالوا من هذا؟ أهو ذلك الذي يئسنا من حياته؟ ولم تمض أيام حتى تماثل للشفاء، وعاد إلى ميدان القتال، وانتهت الحرب العالمية الأولى وجاءت الحرب العالمية الثانية وسقطت دول وقامت دول والرجل الذي يئس الأطباء من شفائه لا يزال حيًّا يُرزق وتزوج وصار لديه أولاد وبنات وعمر وثمر.

(١) «أسباب منسية» للدكتور خالد الجبير، محاضرة مسجلة.

(٢) لم يرد هذا الاسم في القرآن والسنة وإنما في بعض الآثار والأولى أن يسمى بها سماء به الله ورسوله فيقال ملك الموت.

ورجل آخر حفر له أهله قبره لأنهم رَوَّه في النزع الأخير وظنوا أنه مفارق بين ساعة وساعة أخرى، ولكن الرجل طال رَقْدُه، ودفن في القبر غيره، وقام من مرضه وتزوج وأنجب وسار في جنازة كثير من الذين حفروا قبره ليدفنوه إذ ظنوا أن ساعته قد حضرت وعندما كان يذهب إلى القبور كان ينظر إلى ذلك القبر الذي حفر له فصار لغيره.

وهذا مريض اشتد به مرضه ويئس منه الأطباء، فتوجه إلى ربه وخالقه، وقال: يا رب ليس لي رجاء إلا فيك، ثم طلب من الطبيب أن يرفع عنه هذه الحراطين الذي تمده بالغذاء، وتأخذ عنه ما يخرج منه، ويستجيب الطبيب، فقد يئس من الشفاء، ولم يبق إلا ساعات ويفارق الحياة، وكم كان عجب الصيب عندما رأى مريضه في الغد يتماثل للشفاء وبقي الطبيب يزور مريضه العجوز لينظر إلى آية من آيات الله وصدق ربنا إذ يقول ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (الرَّحْمَٰنُ: ٣٨).

كتاب كتبه الله سبحانه لا يأتي قبل وقته ولن يجاوز الأجل حده^(١)، قَالَ عَالِي: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الْأَنْعَامُ: ٣٤).

قلت: وسمعت أحد العلماء حفظه الله يقول: كان رجل من الأثرياء له ابنه وهو في عمر الشباب قد أصيب بأمراض بحث عن علاجها في الشرق والغرب ولم يجد يقول الشيخ: فإذا به يدخل على المسجد ذات يوم فقال لي: ابني هذا مريض نحل جسمه كما ترى واشتد هزاله وضعفه ولا أجد له علاجاً فهل عندك من دواء؟ قلت: بالتأكيد عندي علاج فسرَّ الرجل وقال ما هو؟ فقلت: بشرط أن تنفذ ما أمرك به فوافق فقلت:

(١) «جوله في رياض العلماء» (٢١-٢٢)، للدكتور عمر سليمان الأشقر.

أولاً يصلي الخمس صلوات في جماعة خاصة الفجر. ثانياً: يصوم كل اثنين وخميس. ثالثاً: يقرأ كل يوم جزءاً من القرآن وإن فاتته قراءة يوم يقرأ في اليوم التالي جزأين. رابعاً: الإكثار من ذكر الله والاستغفار والدعاء كل يوم وذهب واتتني بعد شهرين قال وبعد أن نسيت ذلك أو كدت أنساه إذ بالرجل يدخل عليّ وإذا به يصطحب شاباً تلوح نضارة الشباب في وجهه وإذا به يمازحني ويحادثني فقلت لأبيه: أهذا ابنك المريض؟ قال: نعم قد شفاه الله والحمد لله تعالى. قال الشيخ: فوالله ما عرفته إلا من أبيه من تحسن حاله فالحمد لله.

